ثلاثة من الشمال

رواية

خالد تركي

KALEMAT

الإهداء

إلـى الـذين يطـوفـــــون منـافـي الأرض

يحملون أحلامهم على عواتقهم . .

لا شيء يسيّر عجلة التاريخ سوى خيبات الأمل الصغيرة .

«بائع متجول»

رائحة الذكريات تداعبني ، أتشممها الآن بأنفي ، وأكاد أتذوقها على لساني ، يدان تمسكان كتفيّ بقوة وتهزانهما ، فارس ، قم ، قم ، الصوت مرتفعٌ ولحوح ، وشمس أغسطس الحارقة تكاد تخترق رأسي من النافذة المشرعة ، ما هذه الأحلام الصيفية يا الله؟ العرق ينز من رأسي ولا أذكر أني فتحت النافذة ليلة أمس ، الصوت يزداد ارتفاعاً وإلحاحاً ، بنصف نظرة ومن خلف غبش عيني كنت أرى ابتسامةً ذابلة لكنها متماسكة ، فارس ، فارس ، لا ، إنني أعرفها جيداً ، ولكن هل يعقل يا إلهي؟ لا زالت الابتسامة مرسومة على الوجه الذي كنت أعرفه ، فززت من النوم مذعوراً ، ولم يكن حلماً ، ليته لو كان .

استندت إلى الحائط أحدق في تسع سنين من الغياب ، كان رأسي يدور ، ومر شريط الأيام أمامي بسرعة البرق ، شعرت لأول مرة بألم حادث السير عندما سرقنا معاً سيارة والدي قبل خمسة عشر عاماً ، وعناقنا بعد كل هدف في ملعب الساحة الترابية ، رائحة عطر المراهقات اللاتي كنا نلاحقهن في سوق وارة ، وآثار التعب بعد الجولات الطويلة في شارع عبدالله بن جدعان ، اللكمات التي كنا نتلقاها أثناء

معاركنا مع أبناء الكوريات ، والأغاني الحزينة التي كنا نسمعها في الطريق إلى صحراء الصبية ، وطعم خبز التنور الذي كانت تعده عجائزنا أثناء التخييم ، وضعت كفيّ على وجهي أحاول طرد الذكريات من رأسي ، فركت عينيّ لعل هذه الغمامة التي أحسبها خيالاً تزول ، لكن الماضي بقي جاثماً على صدري ، نهضت واقفاً فعاجلني الضيف بعناق دافئ ، وظل يربت على كتفي بحنو ، عادت رائحة الذكريات تطاردني ، إلهي العزيز كيف لك أن تحيي الموتى ؟

(١)

استقل مبارك أول سيارة أجرة وجدها في المطار ، وسار بها إلى مسقط رأسه ، ظل طوال الطريق يراقب بصمت أحياء الكويت وهي تنمو وتبدل جلدها يوماً بعد يوم ، وحدها تيماء كانت على عهدها الأول ، منطقة من الغمام الأبيض ، يحفها البؤس من كل جانب ، وتجبى إليها أحزان العالم كله ، كانت وحلاً بشرياً تغرق فيه النفس في اليأس ، شمال البلاد ، شمال الدنيا ، مثل أي صفر على الشمال ، بلا قيمة حقيقية .

كانت تيماء أو الشعبيات في رواية أخرى ، منطقة الشعراء والفقراء ، شياطين الشعر فيها بعدد سكانها ، يطوّح اليأس هامات شبابها ، ويشغل هاجس الموت وجدان عجائزها ، وكانت الجهراء بأكملها عالماً مختلفاً ، تمثل تجسيداً لمسرحية خالدة تسمى الدنيا بكل تناقضاتها الباكية والضاحكة ، تتخالط فيها الأحياء الغنية بالفقيرة وتُجاور قصورها الشاهقة بيوت الصفيح الأبيض فيها ، ولا يفصل بين بؤسها وغناها سوى شارع واحد ، وبينما كانت تتشابه لهجات أهلها ، وعاداتهم ، فإن في صدر كل واحد منهم عالماً مختلفاً ينزوي إليه كلما ضاقت عليه الأرض بما رحبت .

تنبه السائق العجوز للمعة الحنين في عينيَ مبارك :

– مدة طويلة من السفر؟

– تسع سنين ، كنت مهاجراً

رد السائق وكأنه معتاد على سماع مثل هذه الأجوبة :

– أنت من البدون إذاً؟

– نعم

– لقد قاتلت معهم في الغزو ، كانوا أسوداً في ساحة الميدان ، ومعركة قصر دسمان كانت شاهدة على هذا ، وُجهت الأوامر لكتيبتي بحماية القصر فقاتلنا حتى نفدت الذخيرة ، وقتل صديقي البدون بخمس طلقات ، سحبنا جثته ودفناه بصعوبة بعد أيام ، لم تكن هناك طلقة واحدة في ظهره ، جميعها كانت في صدره ، لا زلت أتذكر أسمه . .

– ممدوح بن جبر .

التفت السائق بتعجب :

– هل تعرفه؟

– قصته مشهورة بين البدون

عاد مبارك لصلاة الصمت التي كان يمارسها ، متأملاً الطريق وهو يتحسس ذقنه التي نبتت بفعل الإهمال ، أعمدة الشمس تكاد تتعامد فوق رأسه في يوم ظهيرة اعتيادي وهو لا يفعل أي شيء لمنعها ، خليط من الابتسام والوجوم يخيمان على وجهه ، لمح السائق الفطن وجهه مرة أخرى من المرآة

الأمامية ، فتوقف عن إلقاء فتات الكلام ، فهم السائق أن البكاء في الغربة قد أذوى من العائدين ألسنتهم ، فلا فائدة من حثهم على الحديث ، وصلنا إلى وجهتك أخيراً .

***

شق آذان الفجر عتمة الليل الرابض ، كان مبارك غارقاً في النوم من شدة التعب ، بينما كنت أجول ببصري في السقف محاولاً تجنب أي فكرة إضافية عن هذا اليوم المجنون ، طرق فيصل أخي الأصغر الباب عدة طرقات قبل أن يلج الغرفة هامساً ، الصلاة الصلاة يا عباد الله ، ثم قال لي ، «فارس سو لأبوي قهوته ولا عليك أمر ، أنا بمشي عندي درس بعد الصلاة» .

كان فيصل أحد عباد الله الصالحين الذين تغشى الملائكة وجوههم ، وتخيم الطمأنينة على حياتهم العاصفة ، مؤمناً ثابتاً في عالم تهتز فيه كل قيمة ثابتة ، كان والدي يحبه لأنه هادئ وغير متذمر ، لا يجده إلا منكباً على كتب الفقه والسيرة وعلوم الحديث ، وهو يسرّح لحيته السوداء الناعمة ويشرب شاي المرمية وارثاً هذه العادة منه ، كان من القلة المتدينة التي تجيد التفريق بين الشيوعية والليبرالية ، وبين ماركس ولوك ، لكنه لم يكن مهتماً بهما ، كلما رأى في يدي كتاباً فلسفياً قال ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، و كلما حدثته عن وثبة

المظلومين ، عن البلاء الذي نحن فيه ، عن القيامة الآتية ، رفع سبابته نحو السماء ، وسرد جملته المعتادة ، قال إمام أهل السنة بحق أحمد بن حنبل الشيباني ، لولا الابتلاءات لوردنا على الله مفاليس ، وكلما حدثته عن شك في قلبي ، وعن سؤال يكاد يحرمني لذة حياتي ، بسط يده ووضعها على صدري ، اللهم اجعل القرآن ربيع قلبه ونور صدره ، كان يسمى بفيصل الحزمي ، نسبة إلى ابن حزم الأندلسي الذي كان يحبه ويجله ويرى أنه توهم في مسألة تحليل المعازف والموسيقى ، وكلما جودل فيها ، انبرى للدفاع عن شيخه وقال ، إن إمامنا توهم أن البخاري علّق الحديث وهذا غير صحيح ، جل من لا يسهو ، لم تسنح لفيصل فرصة التعليم الجامعي لعدم وجود كلية شريعة في الجامعات الخاصة في الكويت ، فدرس بالمراسلة وحاز على مرتبة الشرف فيها .

في طريق العودة من المسجد سألت مبارك :

- لماذا عدت؟

- اشتقت للوطن

- الآن؟

- ماذا يقول المثل؟ أن تشتاق متأخراً خير من ألاّ تشتاق أبداً

- هذا ليس مثلاً

- إنه كذلك الآن

– أعرف لماذا عدت

أطرق مبارك برأسه وأكمل طريقه دون أن يهمس بكلمة ، فتش في جيوبه بحثاً عن علبة سجائره وتذكر أنه نسيها تحت فراشه ، زاد في وتيرة مشيه إلى الهرولة ، وهرولت معه :

– مبارك ، لا تفتح الدفاتر المغلقة ، لا تحاول إحياء الماضي الذي لن يعود ، أرجوك ، إنها ليست لك ولن تكون يوماً لك .

التفت بغضب قائلاً :

– من الذي قال لك إن الماضي ينتهي؟ اليوم هو ابن الماضي ، والماضي ابن الذي سبقه ، الحياة قضية مفتوحة لا تغلق إلا بالموت ، لكنك لا تعرف هذا ، لأنك لم تتجاوز عتبة باب بيتك ، أيها الجبان .

لم أدافع عن نفسي ، تركت الموقف يمضي حتى هدأ مبارك قليلاً ، ثم طوق كتفي بذراعه اليمنى ، ونظر إليّ بطرف عينيه وقال :

– لا تغضب ، جئت إليك لأنك الوحيد الذي يعرف ، أنت والمرحوم تفهمان دوافعي ، الآخرون لا يريدون أن يفهموا ، يصفونني بالعاق والشيطان ، لكني لا أهتم بهم لأن كل ما أهتم به قد رحل عني .

في سنوات طفولته الأولى بادل مبارك ابنة عمه الغرام ، كان كلما رآها جاش صدره بشعور غريب ، موجة عاتية من النشوة والفرح ، عرف فيما بعد أنه شيء يسمى الحب ، لكنه

انقطع عنها عندما بلغ كل منهما سن الرشد ، كان من المحرم في العرف القبلي أن يختلط النساء والرجال مع بعضهم ، اجتاحه شعور الحب مرة أخرى عندما رآها عن طريق الخطأ وهو خارج من بيت عمه في سن المراهقة ، قال لي ليلة خروجه من الكويت ، إن ابتسامة الخجل المرتبكة التي ارتسمت على ملامحها عندما رآها وهي تلبس حجابها حياءً منه ، غيّرت مجرى حياته إلى الأبد ، عيناها الواسعتان يا فارس ، و بقايا الصبغ الأشقر على شعرها الأسود الفاحم ، وغمازتاها اللتان تزاوران خديّها إذا ضحكت ، هل تعلم بأنها كانت تتصل بي مساء كل يوم ؟ أربع سنوات كاملة لم أفوت صوتها لليلة واحدة ، أفراحها وأتراحها كانت تصبها علي صبًا ، وكنت أستلذ بها ، حتى لو كانت تحمل لي لومًا أو عتابًا ، ثم ماذا؟ تركتني في منتصف الطريق ومضت ، أريد أن أذهب إليها فأعانقها وأبكي لأنها خذلت قلبي حتى تجف دموعي ، ثم أمضي ولا ألتفت لها أبداً ، ولكنني لا أستطيع .

كان حال أسرة مبارك كحال الآلاف من أبناء القبائل في الكويت ، نصفها مواطن ونصفها الآخر بدون ، وكان والده الجندي هو البدون الوحيد من بين أعمامه السبعة الذين حصلوا على الجنسية الكويتية فور صدور قانونها في ستينيات القرن الماضي ، خلقت هذه التفرقة شرخاً كبيراً في العوائل والقبائل ، صار أبناء العمومة ينتمون إلى طبقتين منفصلتين ، وصارت

الورقة السوداء المسماة بالجنسية هُوّة نفسية لا يمكن ردمها ، وأضحى أبناء القبيلة الواحدة الذين كانوا يأكلون ويشربون من نفس الإناء ، شراذم متفرقة لا يجمعها جامع .

لكن حب مبارك وأسماء كان متملصاً من كل هذه القيود ، كان حباً سامياً يعود بالإنسان إلى طبيعته الأولى ، حب بدوي لا يأبه بشيء سوى القلب ، وفي النهاية ، خضعت أسماء لرغبة والدها ، ورفضت الزواج من مبارك من أجل مستقبل أبنائها ، كان عليه أن يسمع كلمة الرفض منها وعندما سمعها جن جنونه وأقسم بأغلظ الأيمان على أن ينتقم ، سلب فقدانها منه فضيلة الصمت ، وصار يهذي كل يوم ويشتم ، متوعداً أعمامه بالموت ، قبل أن يجمع شتات خيبته في هدوء ويغادر الكويت نحو لندن ، خارج بوابة المطار ، ترجلت رفقة سعود من السيارة ، صافحته بحرارة وأنا أغالب نفسي الأمّارة بالبكاء ، قبّل سعود ما بين عينيه وهمس في إذنه : أيها الأعرابي ، لاتعد .

سادت لحظة من الصمت الرهيب بيننا ، لا يقطعها سوى نحيب خافت ، شيء بداخل كل واحد منا كان يخبرنا بأنها اللحظة الأخيرة لاجتماعنا ، استجاب مبارك لنداء الطائرة الأخير وهو يمسح دموعه ، دموع فراق الوطن الذي كان يرفض الاعتراف به ، ودموع فراق حبيبته التي رفضت مواصلة الطريق معه ، لم يعد المسافر بعدها ، عاد جسده ، لكن روحه ماتت

عندما حط رجله لأول مرة في لندن ، ودفنت بلا صلاة عليها خلف مدرجات مطار هيثرو .

***

داخل المقهى الصغير ، انتبذت زاوية قصيّة أقرأ فيها كتابي ، ضممت روحي على نفسها ، وجلست إلى الطاولة الخشبية وأنا أمرر أناملي عليها ، فكرت في رحلتها الطويلة ، من الغابة ، حتى المصنع ، حتى المتجر ، حتى المقهى ، سلسلة عذابات لم تخطر على بال أحدٍ منا ، تُرى هل كانت الشجرة تحمل شعوباً من الحشرات التي تظن أن العالم لا يتعدى جذعها؟ لم تلمس يدي غلاف الكتاب ، ظلت الأبخرة الساخنة تتصاعد من كوب القهوة حتى اضمحلت ، كانت ضحكات الناس عالية ، وأصوات ملاعق السكّر وهي ترتطم بالفناجين والكؤوس تطن في أذني ، هذه الضحكات لا تنتمي لي ، وأنا لا أنتمي لهذا العالم ، أي غربة كان على المرء أن يتحمل مشقتها داخل هذا المقهى وهو يهم بتصفح كتابه!

شربت قهوتي التي بردت على دفعتين ، ثم سرت خارج المقهى تاركاً كتابي على الطاولة ، أخرجت من جيب ثوبي علبة السجائر ، حاولت إشعال سيجارتي لكن قداحتي أبت أن تقدح شرارتها ، ضربتها بكفي ضربتين ، عاودت المحاولة ، ما زالت على موقفها الصلب ، رميتها على الأرض بقوة ، فانفجرت فوق الاسفلت محدثةً هلعاً بين المارة ، مدت إلي يدٌ

مزينة بأساور ذهبية قداحتها المشتعلة ، التفتُ نحوها ، فابتسمت في وجهي ، وضعت سيجارتي على فوهة قداحتها ، وأومأت لها شاكراً ، فقالت :

- أهذه طريقتك؟

- طريقتي في ماذا؟

- في مغازلتي ، تحدّق فيّ بالداخل دون أن تكلمني

سرت في جسدي ربكة ناعمة ، حملقت فيها باستغراب بينما كانت تنتظر جواباً مني :

- ولكن لم أكن أحدق بك

- يا خسارتي ، وسيم لا يحدق بي

ألقت عليّ نظرة أخيرة ، ثم صكت أسنانها ، وشدت ملامح وجهها إلى الأسفل ، وهمست بكلمات غير مفهومة ، دخلت إلى المقهى ، فتبعتها على الفور ، سألتها ماذا قالت فابتسمت دون أن تجيب ، ثم غمرت نفسها في زحام المقهى قبل أن تدفع باباً داخلياً ولجت فيه ، عدت إلى طاولتي أحاول قراءة الكتاب لكن غرابة الموقف حرّكت فيّ بذرة الفضول ، خفّت وتيرة زوار المقهى حتى توقفت مع مجيء منتصف الليل ، تملكني شعور غريب بالنعاس ، وضعت رأسي على الطاولة ، وأحطته بيدي محاولاً الخلود إلى النوم ، هزني العامل الأسيوي بيده معتذراً ، سيدي لقد أغلقنا ، قلت له ، أين يذهب العاطلون أمثالي؟ اكتفى بالابتسام ، أنتم أيها الأسيويون خلقتم

مبتسمين ، استمرت الابتسامة البلهاء على وجهه ، سألته عن المرأة التي دخلت من ذلك الباب ، قال لي إنها أخت صاحبة المقهى ، لبست حذائي وحملت كتابي ونهضت واقفاً استعداداً للرحيل ، جاءني الصوت من الخلف يسأل ، ما هو الكتاب؟ رفعته دون أن انظر إليها ، هتفت ، ميلان كونديرا ، ثم اقتربتْ من الطاولة عدة خطوات وجلست عليها ، شدت شعرها إلى الخلف وأطلقت تنهيدة طويلة ، ثم أشارت إلى عمال المقهى بالرحيل ، قالت لهم بإنكليزية فصيحة بأنها ستتكفل بمهمة إغلاق المكان ، قبضت بيدي على الكتاب ، ووزعت نظراتي بين الباب والطاولة ، تراجعت نحو الباب خطوة ، ثم تقدمت نحو الطاولة خطوتين ، ووضعت الكتاب عليها جالساً :

- هل أنتِ قارئة؟
- أقرأ كتب تخصصي وبعض الروايات
- روايات ، جيد ، أيمكنني إشعال سيجارة هنا؟
- لقد ذهب الجميع ، بالطبع يمكنك

ناولتني القداحة بخفة ، لامست يدي يدها لأول مرة ، واقشعر جسدي ، سرت بداخلي رعشة صغيرة مثل نوبة برد ، كان حديثها لا يشبه الأحاديث الأخرى لأي أحد ، وكان صمتها وهي تضع كوب الماء البارد على خدها كلما شعرت بالإحراج أبلغ من حديثها ، عيناها اللتان تعكسان صفحة ماء الخليج المالحة ، وابتسامتها اللؤلؤية ، وبشرتها الضاربة إلى

السمرة ، يشون بأن جذورها ضاربة في هذه الأرض ، قِدم الخلق الأول .

– ما اسمك؟

أجبتها مبتسماً :

– الأسامي كلام

– ولكنها كلام مهم

– فارس ، وأنتِ؟

– مريم

– هناك قصيدة تحكي عن مريم؟

– الله! أحب القصائد

– مريم وتضحك يرق الما ويصفالي زماني \والمكان يطيب والرمان يتكدس هنيّا

قلت رحلتنا تبي سكّر وترنيمة أغاني \جاوبت هات الأغاني واترك السكّر عليّا

– بيتان فقط؟

– أعذب القصائد أقصرها

ضحكت حتى تشقّقت وجنتيها ، ودخلنا في غمرة الحديث الصافي ، لم تكن تشبهني ولم أكن أشبهها ، جاء كلانا من عالمين مختلفين ، لكن الحديث آلف أرواحنا ، تخرجت بتخصص المحاسبة وعملت بهيئة الاستثمار ، بينما تخرجت من إدارة الأعمال وقبعت في بيتي عاطلاً ، لم أخبرها

تفاصيل حياتي ، ظلت تنازلني بالأسئلة وأصد عنها بالدوران حول الإجابات المنقوصة حتى اعتراها اليأس ، كانت تعلم بأن تجاهل السؤال ، خير من الجواب المنقوص ، لأن الأخير يحمل ألف جواب ، بينما لا يحمل الأول سوى كلمة لا .

مشينا نحو الخارج حتى أوصلتها إلى سيارتها ، وكعادة اللحظات الأخيرة لحدث يود المرء ألا ينتهي ، كانت لحظتنا مربكة وعذبة ، صافحتني بغرابة ، ثم وليّت وجهي عنها ، ومضيت في طريقي دون أن ألتفت ، تناسيت كتابي في يدها ، وتجاهلت أخذ رقمها ، ركبت سيارتي وأدرت المحرك ، ثم صرخت بقوة وضربت المقود بيدي ، كانت صرخة ذهول من الموقف ، وكنت مثل من لامس بيده ملاكاً ، لن يصدقه أحد إذا ما حكى عنه ، لكنه يعرف أنه حقيقة لا لبس فيها ، مضيت نحو بيتي أبتسم وأنا أدندن نشيداً بدوياً قديماً

***

كانت نسائم الصيف اللاهبة تلفح وجوهنا ونحن نحتسي الشاي على الدكة الاسمنتية خارج البيت ، جلس والدي في صدر المكان مثل صقر محنط ، وعلى يمينه جلس فيصل يناوله المكسرات ، بينما جلس مبارك في طرف المكان وهو يدخن بلا مبالاة ، حاول فيصل أن ينبه مبارك على ترك التدخين أمام رجل كبير مثل والدي ، كان الأمر يشي بعدم الاحترام ، لكن مبارك كان يغمز لكلينا بعينه ، إن الأمر لا يستحق كل هذا

التعقيد ، اختار والدي الذي كان يتابع حرب النظرات بيننا نحن الثلاثة الصمت ، لا يمكن أن يفوت شيء مثل هذا عن ناظر بدوي في الخمسينيات من عمره ، عاش فطنة البادية ، وخبث المدينة ، بدأ مبارك يثرثر لوالدي حول لندن ، النساء الفاتنات ، الكشميريات هن الأجمل ، مظاهر الإسلام المنتشرة والتي لا يحس معها المرء بالغربة ، الزيارات المتكررة لشيوخ القبائل الذين جاؤوا للعلاج أو للمآرب الأخرى ، الخمرة ، يا للخمرة هناك يا أبا سعود ، صرخ مبارك ، من كل نوع ، الأصفر والأحمر والأخضر ، لكن لندن فيها عيبان ، برودة الطقس ، ورداءة السجائر ، ابتسم والدي ابتسامة خفيفة ، منعه وقاره من المشاركة في حديث مع شاب في عمر أبنائه عن اللهو والخمر في لندن ، استمر مبارك في الكلام ، بينما كان الغضب يسيطر على فيصل ، لم أكن سعيداً بحديثه ، لكني كنت فرحاً لوالدي الذي ابتسم أخيراً .

قاطعه فيصل :

– منذ متى أصبحت ثرثاراً؟

صمت مبارك وهو يحدّق فيه ، وأكمل فيصل :

– كنت أخرساً لا تتكلم ، والآن أحاديث عن الخمر والنساء والسجائر

– الغربة تغيّر فيك الأشياء ، تصقلك وتجعلك رجلاً ، أليس كذلك يا عم؟

وجه حديثه لوالدي ، الذي هز رأسه موافقاً ، عاد مبارك لأحاديثه الطويلة مرة أخرى ثم سأل :

– ما أخبار تيماء ، أما زال زيد صعلوكة سكّيراً؟

– إنه في السجن

– وأصدقاؤه الآخرون ، حنتوش وأبو جعفر؟

– حنتوش مات ، وأبو جعفر في السجن أيضاً

قال فيصل :

– تغيّرت أشياء كثيرة منذ رحيلك يا مبارك

– ماذا فعلوا؟ إنهم مجموعة سكارى لم يعتدوا على أحد .

– لقد مات حنتوش في معركة داخل العراق ، وسُجن صعلوكة وأبو جعفر لأنهما كانا يحاولان تفجير نفسيهما هنا .

تدخلت محاولاً إنهاء الموضوع ، وتجنيب الجميع مشقة الحديث عن أشياء تمنينا لو أنها لم تكن موجودة ، أدرك مبارك فداحة الموقف الذي قادتنا له ثرثرته ، أطرق رأسه نحو الأرض ، وحك شعره مديراً وجهه عنّا .

سُجنوا لمدة خمسة عشر عاماً يا مبارك ، جاء صوت والدي بقلب انفجر كمدًا ، سيعودون بعدها لآبائهم وأمهاتهم ، ولكن من يعيد لي ابني من الموت ، ذهب شبابه هباءً ، ومات أشلاءً بلا قبر ، بلا قبر يا مبارك ، لا أستطيع حتى أن أقبل التراب الذي يرقد تحته ، أو أقرأ أمام قبره الفاتحة ، أو أحكي له عن خطوب الأيام ، ذهبت إلى إمام المسجد وقلت له هل سعود في

الجنة؟ قال لي إن الله غفور رحيم .

آه يا ربي يا حبيبي ، ليتك أخذت إخوته وتركته

آه يا ربي يا حبيبي جنة بدون سعود ما أبيها .

نهض والدي بمعاونة فيصل ودلف للمنزل وهو يمسح دموعه ، هب مبارك نحو كرسيي ، واعتذر بشدة قائلاً بأنه لم يكن يعلم أن لهم علاقة بالمرحوم ، أجبته بأن سعود كان لا يعرفهم ، ولم يلتق بهم في حياته بعد التزامهم ، لكنهم قاتلوا في حرب واحدة ، أخرج مبارك علبة سجائره وناولني واحدة منها ، وجلسنا ندخن ، لم يكتف بالسكوت وقال :

– كان مثقفاً وسيماً ، وزير نساء ، كيف انضم لهؤلاء الهمج؟

– لا أعلم

– تذكر كيف كان يتباهى بعلاقاته النسائية؟ حركته مع النساء في معرض الكتاب كل سنة ، ماذا كان يسميها؟

– الصيد بواسطة الثقافة .

هتف مبارك :

– نعم . . نعم ، كان يذهب نحو أي امرأة وحيدة تريد أن تشتري كتاباً ، يستعرض ثقافته أمامها ، المؤلف كان كذا وكذا ، وظروف الكتاب كيت وكيت ، ثم بووم ، يحصل على رقمها .

– أتذكر حينما اتصلوا بي ، في اللحظة الأولى التي ألقى فيها المتصل عليّ السلام ، وخزني قلبي ، سألوني إذا ما كنت

شقيق أبي محجن الكويتي ، أجبتهم بأني لا أعرف أحداً بهذا الاسم ، قالوا لي سعود ناصر من تيماء في الجهراء ، قلت لهم نعم ، هنيئاً لأخيك الشهادة ، لقد بايع فنعم البيعة بيعته ، وهاجر فنعم الهجرة هجرته ، وقاتل فنعم القتال قتاله ، ثم انغمس أخيراً في أعداء الله من الجيش السوري الحر المرتد بحزامه الناسف ، فقتل منهم ما قتل في مدينة الباب بولاية حلب .

ربت مبارك على كتفي لكني أكملت :

– سقطت الدنيا كلها على قلبي ، أحسست به يتدحرج إلى الخارج بعد أن ألقى الله فيه كل هموم الدنيا ، جاءت أختي من بيت زوجها وهي تولول وتنوح ، ودفن والدي رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء ، كانت المرة الأولى التي أراه يبكي فيها ولم تكن الأخيرة ، اختبأ فيصل في غرفته هرباً من الحزن ، وجاءت أفواج الناس ، لا لتعزي ، أو تشمت ، بل لتصاب معنا بالذهول ، لم نعرف كيف نصوغ رسالة التعزية ، ارتأينا في نهاية الأمر على عدم كتابتها ، لقد مات شخص منا ، التفاصيل لم تكن مهمة ، هذا ما ظللنا نحاول إقناع أنفسنا به .

بدت علائم التأثر بادية على وجه مبارك فيما كانت الدموع تنهمر مني بلا إدراك ، كانت المرة الأولى التي أحكي فيها عن رهبة الموقف ، لم أكن أحب الظهور بمظهر الضعف ، ولم أستجدِ الشفقة من أحد في حياتي ، لكن مبارك لم يكن

ليملأني قوة ، أو لينظر إليّ بشفقة ، كان لكل منا جحيمه الخاص ، وقال لي :

– كنا في صف واحد في المدرسة ، وكان دوماً الفتى الأذكى بيننا ، لكنه في نهاية الأمر اتخذ هذه الخطوة . . .

– الغبية؟

هز رأسه :

– نعم

– إني أفكر منذ مدة ، هل كانت الخطوة غبية أم أنها مبررة؟

– ماذا تقول؟

استنكر تساؤلي ، وأكملت :

– فكّر بعقل سعود ، لو صرف عليك والدك آلاف الدنانير من القروض لتدرس الهندسة في جامعة خاصة ، وتخرجت منها بمرتبة الشرف ، ثم تُصعق بأن الحياة ليست مثلما تصورت ، وأنك حتى بعد أن حققت الشروط الخاصة للانضمام لزيفها ، فإن لديك شرطاً وحيداً ناقصاً ، وهو أنك بدون .

– كلام عظيم

– ليس هذا تساؤلي فحسب ، إنه نتاج تساؤل مشترك بيني وبين مرزوق ، أو إنه تساؤله هو لكنني سرقته منه

– مرزوق؟

– صديق رائع سأجمعك به اليوم .

(٢)

«إن الهدف الأسمى للسياسة هو تحسين وضع الإنسانية والسمو بالبشرية ، ولا يمكن تحسين وضع البشرية إلا بإنهاء الطبقية ، ولا يمكن إنهاء الطبقية إلا بالقضاء على هؤلاء الإقطاعيين الطفيليين ، وهؤلاء لا يقضى عليهم إلا بالعمل الدؤوب في توعية الجماهير» .

كان المتحدث كث اللحية ، منكوش الشعر ، يتكلم في جمع من الشباب الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين ، أنهى سيجارته الأولى ، وأشعل على الفور وبحركة سينمائية لا تخطئها العين سيجارة أخرى ، وصرخ في عامل القهوة مطالباً إياه بفنجان آخر ، ما إن دخلنا باب المقهى حتى لمحنا على الفور ، صافحنا بحرارة وطلب منا الجلوس :

– ماذا تشربون ، شاياً أم قهوة؟ الشاي مشروب الأغنياء ، اطلبوا قهوة إذاً ، عاصم يا عاصم ، اجعلها ثلاثة فناجين قهوة فرنسية .

سألته :

– منذ متى وأنت تجلس هنا؟

– تسع ساعات ، إنني أعمل على مشروع تاريخي ضخم ،

يحكي قصة الأيام الأولى للثورة البلشفية .

– إنك بارع في الكلام ، أين هي مشاريعك الفكرية الأخرى؟ لم نر منها شيئاً .

– إن مشكلتي في الحظ يا عزيزي فارس ، الحظ ضدي ، ومن المستحيل أن ينجح إنسان في هذه الدنيا بلا حظ

– لماذا تصر على خوض كل هذا إذا كان حظك مائلاً؟

– لأن الإصرار يصنع الحظ ، هذه نظريتي .

– لديك قدرة عجيبة على تحويل كل رأي سخيف إلى نظرية .

– الحياة نظرية يا عزيزي وكل ما فيها نظرية أيضاً ، القهوة التي نشربها الآن نظرية ، نقاشنا هذا نظرية ، صديقك الذي جلبته معك ولم تعرفنا عليه ، نظرية ، الآخرون الذين بدأوا بالتجمع ونحن نتناقش ، نظرية .

أشار إليهم وهو يبتسم .

كان مرزوق شخصية طوباوية ، صُهرت من معدن التجارب الأليمة ، معسول اللسان ، سريع البديهة ، يستطيع الحديث طوال اثنتي عشر ساعة في المقهى دون توقف ، يتكلم بغضب ، يصمت بغضب ، ويبتسم بغضب ، سحقت شراهته في التدخين جانباً من نضارة وجهه ، وعافية بدنه ، بينما تولت الأيام سحق الجانب الآخر منها ، أصيب بعرجة نتيجة لحادث مروري تعرض له ، وبرغم هذا فإن في ابتسامته ما يشبه

ابتسامة طفل عاجز ، سلبت منه الدنيا كل ما يملك ، وإذا كان كل فرد في تيماء يمتلك قصة بؤس ، فإن مرزوق يملك القصة الأكثر توحشاً ، تفاصيلها الدقيقة لم تكن معروفة ، لكن خطوطها العريضة يُتهامس بها كلما مر مرزوق أو أحد أفراد عائلته بجمع من الناس .

سعل مرزوق بقوة ، ووضع منديله على فمه ، ثم سعل مرتين ، وتفحصه بدقة ، طالباً مني الاقتراب ، سائلاً إياي إذا ما كنت أرى فيه دماً ، أجبته بأن المنديل نظيف إلا من المخاط ، المخاط جيّد ، هز رأسه ثم سأل مبارك :

– قال لي فارس قبل يومين إنك جئت من لندن .

– الأخبار تنتشر بسرعة في تيماء

– الأخبار تنتشر بسرعة في كل مكان ، كيف هي لندن هل لا زالت باردة؟

– إنها دوماً باردة .

– أحب هذه المدينة ، وأحب سرها المجهول الذي جعلها الأفضل في أوروبا

– ما هذا السر؟

– إنه سر ومجهول ، كيف لي أن أعرفه؟

ضرب مرزوق كفه بكف مبارك وغرق كلاهما في موجة ضحك ثم قال :

– درست ثلاث سنوات في طفولتي هناك ، أذكر أن والدي

أخذنا لحفل محمد عبده ، لا أعرف كم كانت السنة بالضبط ، لكنها في أواخر التسعينيات ، كنا نتسكع في شارعيّ أكسفورد وأجوورد ، ونتشاجر مع العراقيين هناك ، تعرف آثار الغزو وما إلى ذلك ، اصطحبني أخي الأكبر مرة بالقطار لأشاهد مباراة مانشستر يونايتد ، صافحت ديفيد بيكهام بيدي هذه ، أقسم لك .

أكمل مرزوق بفخر وهو يشد بنطلونه إلى الأعلى :

– كان أبي ملحقاً دبلوماسياً في السفارة

نظر لي مرزوق وهو يكتم ضحكته ، بينما راح مبارك يحاول صد الاستغراب الذي سيطر عليه ، كان كلانا يراقب بشفقة سعيه وهو يرفع اصبعه للسؤال ، ثم يدنيه خجلاً ، زاد مرزوق من حيرة مبارك :

– شقتنا في لندن كانت من أفخم الشقق ، لكننا بعناها .

خرج سؤال مبارك مراوغاً :

– هل تسكن في تيماء؟

– انظر إلى هذا الوجه الذي نحله الفقر ، أين سيسكن ، بالضاحية؟ طبعاً في تيماء ، أنا على بعد شارعين من بيت فارس .

رمقني مبارك بنظرة محتارة وغاضبة في آن ثم سأل بكل خجل :

– هل أنت كويتي؟

– لا

رد مرزوق بسرعة خاطفة

– سعودي؟

– لا

– لا يبدو بأنك عراقي أو أردني أو سوري؟

هز مرزوق رأسه نافياً ، جن جنون مبارك ، وعصر وجهه بيده ثم سأل باستنكار :

– بدون وملحق في سفارة! إنهم لا يعطونا هذه الوظائف

التفت نحوي ثم قال :

– ذكرني ماذا يقول الشاعر عن العساكر والخدم؟

– «ما به وزير من البدو صار منا \وظايفنا كلها عساكر وخدّام»

– نعم هذا البيت

– أنا لست بدون ، البدون أنت وأشكالك

قالها وهو يتصنع الغضب ثم أضاف :

– ولست بدوياً

بلل الخجل ثياب مبارك ، صرخ مرزوق وهو يضحك ، لقد وقع في الفخ ، الجميع يقع في الفخ ، ضحكنا بشدة وضحك مبارك معنا :

– لقد أوقعتم بي ، إنك تصف لندن كما لو أنك زرتها وعشت فيها ، كذّاب كبير .

توقفت الضحكات فجأة ، وقال مرزوق بهدوء :

– أنا لا أحب الكذب ، ولا أحب أن يتهمني أحد بذلك ، كل ما قلته لك كان صحيحاً ، عشت بالفعل في لندن ، وكان والدي دبلوماسياً هناك ، وإذا كانت منطقة سكني معيبة ، وملامحي الحالية غير لائقة بالنسبة لكون والدي ملحقاً دبلوماسياً ، فهذا أمر راجع لك ، أنا أفتخر بكوني في تيماء ، وأفتخر بكوني هذا الشخص الفقير أمامك ، وأفتخر بكوني أجلس مع هؤلاء البدون ، الذين أصبحت لا تراهم شيئاً بسبب جوازك البريطاني .

رد مبارك معتذراً :

– لم أقصد الإهانة ، لكني استغربت كيف لبدون أن يكون دبلوماسياً؟ إنها أول مرة تحدث لي .

– كنت كويتياً

– كنت؟

– والدي دبلوماسي سابق ، اعتدى على مجموعة من الأشخاص ذوي النفوذ ، فدبروا له مكيدة وسحبوا جنسيته بكل بساطة ثم ألقوه في الطريق مع أبنائه وأحفاده .

– أنا آسف من أجل ذلك

– لست محتاجاً لأسفك ، كنا نمزح فقط .

تحولت المزحة المحبوكة التي كنا نلعبها أنا ومرزوق مع الأشخاص الجدد الذين نتعرف بهم ، إلى موقف مأساوي مع

مبارك ، كان كل من يلتقي مرزوق يتوقع منه بسبب براعته في الحديث ، وسرد الذكريات عن الأماكن الكثيرة التي زارها في طفولته ، وعن ذكرياته مع كبار رجال الدولة ، أن يكون موظفاً مهماً في مكان مرموق ، لكنهم كانوا يُذهلون من كونه عاطلاً عن العمل ، وسائق شاحنة لبعض الوقت ، وبينما كانوا يسألونه عمّا إذا كان بدوناً ، فإنه يغرقهم في دوامة من الحيرة يتضاحك فيها عليهم قبل أن يخبرهم بحقيقته ، مرياً إياهم بطاقته العسكرية كضابط سابق في الحرس الوطني .

استأذن مبارك للذهاب نحو دورة المياه ، فيما استغل مرزوق رحيله المؤقت ليقترب مني :

– صادفت مبارك صديقك هذا ليلة أمس

– أين صادفته؟

– في مقهى الأسطورة

– ماذا يفعل بالصليبية؟

– كان يجلس مع مهدي القصير ، والشخص الآخر الذي كان يزوّر الشيكات ، نسيت اسمه

– تقصد ضاري؟

– نعم هو ذا ، ألم يهاجر قبل سنتين؟

– بلى ، ما الذي جاء به؟ يجب أن ينتظر خمس سنوات ليحصل على الجنسية البريطانية

– شقيق ضاري الأكبر اسمه فواز ، أعرفه جيداً ، حقق

معه ابن عمي قديماً عندما كان في الشرطة ، إنه لا يتورع عن استخدام الأسلحة ، وربما يتقاتل مع مبارك عند حدوث خلاف بينهما .

– إن مبارك صديق طفولة لا يحب التورط في المتاعب ، رغم أني سمعت أنه كان يقوم بأشياء من هذا القبيل

– أشياء مثل ماذا؟

– تهريب المهاجرين ، جنى ثروة من هذا العمل بحسب ما يقال

سألته بعد لحظة :

– وماذا تفعل أنت في الصليبية؟

– أبشّر بالماركسية

ثم قهقه بشدة .

عاد مبارك وهو يشكو بقرف من قذارة الحمامات في المقهى ، وثرثر عن مدى نظافة دورات المياه في حانات لندن ، قبل أن يسأله مرزوق عن انطباعه حول الكويت ، جميلة ومتغيرّة بعض الشيء ، أجاب مبارك ، قضيت اليوم كله ليلة أمس في السالمية على البحر ، التفت إلي مرزوق وهو يبتسم ، بينما كاد قلبي يسقط من جوفي ، بلعت ريقي بصعوبة ، وتلعثمت في الكلام ، ضاع الحديث من لساني وأنا أحاول إبعاد الفكرة ، لكنها كانت تأتي إليّ رغماً عني ، كنت أعرف أن مبارك لم ينس حبه الأول ، لقد عاد للانتقام ، وكنت أعرف

قدرة فواز شقيق ضاري على صنع الموت ، كان على استعداد لدفن أي كائن حي ما دام المقابل مجزياً ، كنت أعرف أن قصة عذاب جديدة ، على وشك أن تتشكل في تيماء ، لتجر الجميع إلى الحضيض ، وكنت أرى أعواد الحطب تُقطع كي نحترق جميعاً في جحيم سنصنعه بأيدينا .

افترقنا نحن الثلاثة ، عاد مرزوق ليقرأ في بيته ، فيما قال مبارك بأنه سيذهب في مشوار قصير ، وذهبت نحو البيت لأنام ، خلدت تيماء في رحبة الليل الساكن إلى الدعة ، وخلد المعذبون فيها إلى النوم خلا فرداً واحداً هو أنا ، كان الأرق يمضغ تفكيري ، والقلق يأكل من رأسي ، أقلب عينيَ بين السقف وفراش مبارك الذي كان خاوياً إلا من بقايا علب سجائره وأعواد الثقاب المتناثرة .

نهضت نحو الصندوق الخشبي الأسود ، كان يضم ثوب صلاة أمي وبعضاً من حاجياتها ، أوراق وقصاصات مبعثرة لشعراء التسعينيات ، وصورة لي ولأخي سعود كُتب عليها من الخلف بخط دقيق ، اليوم الأول الذي يمشي فيه فارس ، صورة لأختي وهي بثياب المدرسة ، وصورة لوالدي بلباسه العسكري ، آخر شهادة دراسية لأمي من الصف الثاني ثانوي ، كتب عليها بالخط الأحمر ،سأكمل تعليمي يوماً ما ، فرّت الدمعة من عيني ، وألانت الصور روحي المتصلبة ، أحسست بيد أمي تمتد إلى صدري ، وتنتزع قلبي انتزاعاً من موضعه المحترق ، تغطيه

بقبلاتها ، وتمسح عليه مسحتها الحانية التي لا أذكرها ،ثم ترده إلى موضعه الأول ، لو كانت أمي موجودة لما حدث نصف الذي حدث ، لأول مرة أعدت التفكير بأني عانيت يتمين ، يتم الأم ويتم الوطن ، كنت أحب أمي من وراء الحُجب لأني لا أذكر إلا طيفاً يسيراً منها ، وأحب وطني دون أن أنتمي له يوماً ، كنت أحب ، ولكن من وراء حُجب ، وما أقسى الحب البعيد المنال يا الله .

كانت أمي في السادسة عشر من عمرها حينما تزوجت والدي الكهل الذي كان يكبرها بخمسة عشر عاماً آنذاك ، لكنها أحبته من كل قلبها رغم أنها سمعت به ولم تره ، وأذن البدوية تعشق قبل العين في غالب الأحيان ، ماتت بعد أربع سنوات من إنجابي بسبب السرطان ، لا زلت أتذكر أفواج المعزيات باللباس الأسود وأنا في حضن خالتي أحاول تمييز الأمور ومعرفتها ، لم تترك لي في الحياة سوى صورة واحدة وهي تبتسم فيها متحزمة حزام الذهب الذي كان جزءاً من مهر زواجها . وقع ناظري على قصاصة صفراء كُتب عليها :

كانت الجهرا وطن
فيها صنوف الناس
نعيم وجحيم
حرير وكفن
كانت الجهرا وطن

الطيب . . الهادي . . شديد الباس
فيها عشيش وقصور
ضحكة غنج ودلال
بسمة أب وأطفال
كانت الجهرا وطن

فجأة وبلا مقدمات ، ركل مبارك باب الديوانية ، اتجه رأساً نحو فراشه دون أن ينظر إلي ، دس نفسه فيه ، وابتدأ بالنحيب بصوت خافت ، فهمت أنه اختلق صدفة معها ، بلغ الخوف حنجرتي ، سُل سيف الانتقام ولن يعود إلى غمده إلا بالدم .

أنت أسطورة أثخنتها المجاعات

محمد الثبيتي

(١)

كانت الرسالة التي بعثها مبارك في الصباح موجزة وبلا تفاصيل ، «الغداء الساعة الثالثة في الجميرا ، لا تتأخر من فضلك» .

تجاوزت بهو الفندق قليلاً ثم وجدت نفسي تائهاً داخل المطعم ، لم تكن هذه الوجوه مألوفة بالنسبة لي ، ولم أكن مألوفاً بالنسبة لها ، لمح أحد الندّل حيرة ملامحي البدوية ، ووقوفي وسط المطعم بلا هدف مثل فارس قبيلة فقد عنان خيله ، وصار يمشي بحيرة وسط الفلاة ، اقترب مني فعاجلته بالسؤال ، أبحث عن صديق لي اسمه مبارك؟ ، أجاب ، السيد مبارك! إنه يجلس مع مرافقه على المسبح .

كنت أظن أن دعوة الغداء هذه ستكون مثل أي اجتماع ، يسترجع فيه صديقان قديمان التقيا أخيراً قصص طفولتهما ، جرائمهما الصغيرة التي ارتكباها خلسة وبعيداً عن عين الله ، تلصصهما على ابنة الجيران التي كبرت وخطف قلبها شاب من خارج تيماء ، تنظفيهما لمحراب المسجد في صلاة التراويح كل يوم ، ظناً منهما بأنه باب الجنة الحقيقي ، لكنه لم يكن كذلك .

كان مبارك يجلس أمام المسبح مرتدياً قبعة مستديرة

بيضاء ، وقميصاً أزرق فتح نصفه أزراره مظهراً شعر صدره ، وعلى فمه سيجار كوبي وأمامه على الفور جلس مرزوق وهو يحتضن عصاه السوداء التي يتكئ عليها ، كان ينظر لي بنصف ابتسامة مريبة ، بينما راح مبارك يتمايل بشكل غير طبيعي ، وهو يضحك على أنغام الموسيقى التي كان يصدح بها المسبح :

– أيها البدوي إنك تبدو غريباً على هذا المكان؟

قال لي مبارك وهو يحتضنني ويصرخ .

رفع مرزوق يده نحو فمه ، وأشار لي بحركة واحدة أن مبارك في حالة سكر ، أبعدت يده من على كتفي :

– أنت في حالة غير طبيعية

– لا تكن كئيباً أيها الشيخ

– هل جلبت هذا السم إلى بيتي؟

– اسمه مشروب روحي ، هل تريد رشفة؟

– لا أريد أن أراك بعد اليوم في بيتي أيها المنحط

رفعت يدي هامّاً بضربه ، لكن مرزوق وقف بيني وبينه ، صرخ هامساً ، أرجوكما توقفا عن هذا ، ثم أجلسنا على الطاولة بقوة وقال :

– هناك شيء ينوي مبارك التحضير له وسيكون مفيداً لنا

– بماذا سيفيدنا هذا السكّير؟

– لديه مخطط سيجعلنا أغنياء ، سيخلصك من كل هذا الذي أنت فيه

– أنا في ماذا؟

تدخل مبارك :

– أنت عاطل ، ولا تستطيع السفر ، ولا إكمال دراستك ، ثم تقول أنا في ماذا .

أكمل مرزوق :

– سنقوم بسرقة أماكن متفرقة ، والهروب بأموالها إلى لندن ، سنحصل على مبلغ محترم ولجوء سياسي .

– أنت جاد؟

– لست تراني أمزح

– أنت تظن أنك تعرف كل شيء

– حول ماذا؟

أكملت :

– لكنك لا تعرف يا مرزوق ، أنت مسكين .

– لا أقول لك إن كل الحقائق في جيبي

– أخبره يا مبارك لماذا عدت أخبره ، أخبره هيّا

صرخ مبارك :

– وفّر على نفسك عناء الإحراج ، أخبرته بكل شيء

– أخبرك بأنه عائد لينتقم؟

– لم أعد لأنتقم ، إني لا آبه بها الآن

– لماذا اجتمعت مع ضاري إذاً

– لأنه سيكون في طاقمنا

قال مرزوق :

– نريدك معنا

– أنا عديم فائدة ، في ماذا تريداننني؟

– نريد أن ننفعك فقط

– لا أجيد حمل السلاح

– لن تكون هناك أسلحة! سنختلس الأموال من أماكن نعرفها

– ما هذه الأماكن؟

أشاح مبارك بوجهه ، بينما تلعثم مرزوق ، طلبا مني الجلوس ، لكني بقيت واقفاً ، وأصررت :

– قلت لكما ما هذه الأماكن؟

– جمعيات خيرية ، وشركات سياحة وسفر

– تسرقون أموال الأيتام!

– إنهم لا يعطونها لهم

قالها مرزوق فالتفت نحوه :

– أنت يا مرزوق ، الرجل العاقل الشريف يتلاعب بك سكّير مثل هذا ، عار عليك ، أما أنت يا مبارك ، ألم تصرف عليك الجمعيات الخيرية عندما جحدك أعمامك؟

– كانوا يلقون إليّ بالفتات

– الفتات خير من الجوع

– اخس و اعقب ، حفيد الفرسان لا يأكل الفتات

– إنك معتوه .

نهض مبارك نحوي محاولاً ضربي بالكأس ، دفعه مرزوق عني ، ثم أمسكني من كتفي وقال لي ، أرجوك فكّر بالموضوع ، إنه في حالة غير طبيعية وأنت غاضب ، اذهب إلى البيت وصل صلاة استخارة ، لكن إذا أردت نصيحتي لا تضيعّ هذه الفرصة ، وإياك . . إياك ، أن تظن أننا نستجدي أحداً ، لقد ولدتنا أمهاتنا واقفين ، تصاعد الشرر من عيني مبارك ، وصرخ فيّ أمام الجميع ، تريد الثروة؟ ها هي قد جاءتك تحت قدمك ، لكنك جبان ، هل تظن أن أجدادك حصلوا على المجد باتباع القانون؟ أم أنك تظن أن السماء ستمطر ذهباً وفضة؟ صرخت فيه ، لا أريد أن أراك في بيتي ، رد بهستيرية ، لن أجلس في بيتٍ فيه مخنث مثلك ، لدي أموال أشتري بها هذا الفندق بأهله .

غادرت بغضب تاركاً مهمة تهدئة مبارك لمرزوق ، ووقفت خارج الفندق أحاول استجماع أنفاسي وكبح غضبي ، كانت يدي اليسرى ترتعش من شدة التوتر ، حاولت السيطرة عليها دون جدوى ، ألقت الشمس بسهامها الحارقة على رأسي ، واستندت إلى الجدار أحتمي منها ، ثم سقطت ، أحسست برائحة جلدي وهو يكاد يُشوى في حرارة الاسفلت ، لم أر إلا نوراً كان يتضاءل من عينيّ شيئاً فشيئاً ، ويدان ناعمتان زينتهما أساور مذهبة تحيطان برأسي ، اختفى النور كله ، وفقدت إحساسي بالوجود .

استفقت في عيادة الفندق مذعوراً من فكرة الموت ، لا زالت اليد تمسح على رأسي ، تحسست راحة كفها بأناملي ، ثم رفعتها واصلاً إلى الساق ، الأساور المذهبة نفسها تحيط بي ، نهضت بقوة مثل جثة عادت من الموت ، أنتِ!؟

ظلت تحدّق فيّ بجرأة وهي تضحك ، بينما استولت الصدمة على ملامح وجهي ، اتسع بؤبؤ عيني ، وخفق قلبي بشدة مرة أخرى ، حاولت الوقوف والتوازن فأسندتني على ذراعها ، ما فرصة أن تلتقي فتاة مجهولة عنك في مقهى صغير وسط العاصمة؟ تتحدثان قليلاً ثم تفترقان مثل أي عابرين مرّا ، تفكر بها طوال أيام ، ثم تذهب إلى فندق لتصيبك ضربة شمس ، وتحيطك يداها هذه المرّة .

ماذا تفعلين هنا؟ أتجسس عليك ، ولكن ماذا لديّ حتى تتجسسي عليّ؟ قالت وهي تضع أصبعها على أنفي مداعبةً ، لديك هذا الوجه الأبيض ذو الأنف المسلول مثل السيف ، وهذا الطول الفارع ، ثم أطلقت ضحكتها الغير محتشمة مرة أخرى ، احمرّت شحمة أذني ، وغلا وجهي ، أحسست بالذوبان وسمعت دوي صافرات في رأسي ، شمّت بحسها الأنثوي رائحة ارتباكي ، فراحت تتلاعب بيّ مثلما يتلاعب الأب بطفله الذي يحبو مازحاً ، كان وقع كلماتها ، وتشديدها مخارجَ الحروف من فمها عمداً لإغوائي ، يشبه وقع الماء على طير صغير ، كنت أحس بالبلل ، حاولت عبثاً أن أمسك زمامَ الأمور لكن روحي ما

عادت تقوى ، وغمرتني عيناها غرقاً دون أن أحاول العوم ، سحرني إقدامها الذي لا يشبه إلا شيئاً واحداً ، حوافر خيول أجدادي وهو تدوي كالرعد من سهول نينوى حتى جبال حائل .

سألتني بجدية :

– لماذا لم تزر المقهى مرة أخرى؟

– حدثت أمور كثيرة بعد آخر زيارة لي

– إن كتابك عندي ، قرأت جزءاً منه ولم يعجبني

– ولا أنا

– إذا لماذا كنت تحاول قراءته؟

– لأعرف سبب إعجاب الناس به

نهضت مستنداً عليها ، ارتديت بقية ملابسي ، بينما قالت لي الممرضة إن عليّ أن أشرب السوائل وأخلد إلى الراحة ، شربت ما تبقى من علبة الماء الباردة في يدي ، وخرجت رفقة مريم نحو بهو الفندق

– لماذا جئت إلى هنا؟

– أبحث عن مقهى جديد ، المقهى السابق غير ملائم

أجبتها بسخرية

– كفاك هذا ، إنني هنا من أجل الراحة والاستجمام ، الاسترخاء الذهني واليوجا بعيداً عن ضغط العمل

– لوحدك؟

– معي ابنتاي

- وأبوهما؟

- أرسلته في إجازة

فهمت مقصدها مبتسماً ، قالت لي إنها تود أن تدعوني للغداء ، ترددت خوفاً من أن يراني مبارك ومرزوق ، هل أنت خائف من أن يراك أحد معي؟ ضحكت ثم أكملتْ ، لا عليك سنأكل في غرفتي ، ازداد ترددي ، و ذهلت من جرأتها ، لكنني اضطررت لمجاراتها ، لن أسمح لأحد أن يراني مع امرأة ، قالت ، إنك مثل ولدي ، لكنني معجبة بك .

ولجنا إلى الصالة المطلة على المسبح ، قامت مريم بجر مفرش من على طاولة الطعام لتضعه على الأرض بطريقة متمردة ، ترك النادل الأطباق على الباب فيما تولت هي مهمة حملها إلى الداخل ، كانت تشرح مع كل انحناءة تضع فيها الأطباق الإيطالية اسمها ومحتوياتها ، طبق الرافيولي بالصلصلة الحمراء ، البيتزا بالجمبري وأعشاب البحر ، خبز الفوكاتشيا بالأعشاب والتوابل ، ثم ذهبت نحو زاوية الغرفة لتجلب زجاجة كاملة ، إنها شمبانيا بلا كحول ، قالت وهي تضحك مستفهمةً عن موقفي منها ، هززت برأسي موافقاً ، كان شعرها بالكاد يغطي رقبتها بينما زيّن قرطان صغيران أذنيها ، وقعت عيناي أسيرة القلادة التي كانت تأخذ موقعها بشموخ في منتصف نحرها المائل لونه إلى السمرة ، حاولت أن أشتت تفحصي الشبقي فيها :

– أنت مطلقة؟

– هذا اللفظ مهين للمرأة

– إذا ماذا أقول؟

– منفصلة

– لا فرق ، العبرة في الحدث نفسه ، أنت منفصلة عن زوجك لماذا؟

– أصبت بخيبة أمل ، لم يكن حلم الزواج مثلما تصورت ، بعد فترةٍ منه صرنا باردين وغير مبالين ببعضنا ، ثم غير مبالين بالحياة ، وحينها فكرنا بأن الإنجاب سيعيد الحماسة لنا ، أنجبت توأماً ، ابنتين جميلتين ، وازدادت الأمور سوءاً ، أصبت باكتئاب ما بعد الولادة حتى كدت أن أقتل ابنتيّ ، بعدها قررت الانفصال ، حاول التمسك بي ، كان مظهره كإنسان منفصل يخل بالمناصب التي يخطط للحصول عليها في وزارات الدولة ، لكني لم آبه ، كنت أريد الحرية لنفسي .

– وهل حصلتِ عليها؟

– نوعاً ما ، لكن الحرية الأكبر هي عندما أستقيل من وظيفتي وأسافر ، ربما أفتتح مطعماً في نيويورك وتدور حينها حياتي حول إعداد الخبز للمطعم ، وري المزروعات في شقتي التي ستكون فوقها

– لكن وظيفتك مهمة كيف تتركينها؟

– الجميع يخبرني بذلك ، وظيفتي مهمة ، وعائلتي غنية ،

وزوجي رجل واعد ، وسيرتي الذاتية رائعة ، لكن ماذا عن البؤس بداخلي ، مللت كل هذا الزيف ، أموال الدنيا كلها لا تشتري السعادة ، وأنت تعرف هذا

- لا أعرف

- الكويتيون جميعاً يعرفون ، كلنا أغنياء بالقدر الكافي الذي يجعلنا تعساء ، لا يوجد فقر هنا ولا توجد سعادة حقيقية نابعة من ذات الإنسان ، أريد أن أتخلى عن كل هذا وأبني نفسي من الصفر .

ركنت إلى الصمت ، وخبأت الكلام الذي كان من المفترض أن أحكيه لها عن أن الفقر ليس كما هو في الروايات ، ملحمة بطولية سرعان ما تنتهي في الفصل الأخير ، نهضنا من على مفرش الطعام وسرنا نحو المسبح ، كان قرص الشمس قد ذاب في لجة الخليج ، بينما رحنا نمشي على شاطئ الفندق متجاورين ، سألتني عن أحلامي ، لم أقل لها إن أحلامي هي حياتها التي تنوي التخلي عنها الآن ، تشابكت أيدينا بلا قصد ونحن نمشي ، تعانقت قلوبنا مثل عاشقين في سرير خطيئة ومضينا نسير في الشاطئ نطارد مغيب الشمس .

(٢)

كان لأذان الفجر المنبعث من حنجرة مؤذن المسجد المجاور لبيتنا وقع خاص في قلبي ، يمتزج صوته مع صوت أخي فيصل وهو يهمس في أذني موقظاً إياي للصلاة ، وخشخشة ثياب والدي وهو يستعد للخروج لها ، كانت صلاة الفجر بنظر سكان تيماء مهرجاناً لتجديد الثقة بالله ، تأكيداً على العبودية التامة والخضوع الأبدي له رغم ما يعانونه ، وكنت أرى صلاة الفجر هروباً من وحشة الدنيا إلى ملكوت السماء ، تحولاً من تكويني الإنساني الحقير إلى تكوين الملائكة ، بجانب جبريل وميكائيل ، لم تكن علاقتي مع الله في أحسن أحوالها ، وكانت في مجملها قائمة على المصلحة ، كلما داهمني الخوف لجئت إلى الصف الأول ، ومع أول تكبيرة تتساقط الهموم من داخلي ، وتجف أنهار الخوف في جوفي ، وتغدو الحياة سهلة تافهة ، لا تساوي أمامي جناح بعوضة ، كما هي أمام الرب ، أنت ممن يعبد الله على حرف ، قال لي فيصل .

قرأ الإمام هذه المرة سورة الزُمَر ، وبلا سبب محدد أعاد ترديد آية «إنك ميت وإنهم ميتون» أكثر من مرة وهو يبكي ، أحسست أن هذه الآية التي نزلت في الرسول محمد ، رسالةٌ

من الله تطلبني أن أتأمل زوال الدنيا ، ولا أخاف من أي أحد ، وأقوم بالأعمال التي ظاهرها الخطأ والجريمة ، لكن باطنها يحمل معاني سامية ، ويجسد القيامة الدنيوية في الانتقام من أولئك الذين هضموا حقوقنا ، طار عقلي بقية الصلاة ، وصارت حركات الركوع والسجود والقيام بعد قراءة هذه الآية مجرد اعتياد يقوم به عقلي الباطن ، بعد الصلاة ، قلّبت الفكرة في رأسي حتى أطارها توافد جيران الحارة على ديوانية أبي ، كانت شبّة الفجر كل يوم طقساً مهماً من الطقوس البدوية ، عشرات كبار السن من الرجال البدو ، الذين ينحدر غالبهم من قبيلتنا يجلسون في الديوانية بين صلاة الفجر وشروق الشمس ، يشربون القهوة ويسترجعون حديث الصحراء الغابر ، وبطولات أجدادهم في المعارك والغزوات ، دمّرت الحدود المصطنعة ما تبقى من أمجاد هذه القبائل ، وجعلت أبناءها مشردين في أقطار الأوطان العربية ، كان منظر أحفاد أمراء قبائل الجزيرة وهم يعيشون في مقبرة اسمنتية ، ينهشهم فيها الفقر ، وينتظرون الحصول على الجنسية الكويتية ، أو مجيء ملك الموت ليخلصهم من هذه الورطة مثيراً للشفقة ، عندما تجوع في السابق كنت تسل سيفك لتأكل من ظله ، أما اليوم فيقتلك الجوع دون أن تجد حيلة ، ليت هذه الدول الحديثة لم تقم يا ابن أخي ، كان أبو ثويني العجوز الطاعن الذي جاوز التسعين عاماً بقليل يردد هذه الجملة دوماً على مسامعنا .

– أبو سعود إن عليك حقاً

وجّه أبو طلال بصوته الجهوري سؤاله لوالدي

– أعوذ بالله من الحقوق

– ابن عائلتنا مبارك بن ممدوح بن جبر ، يأتي من لندن وينزل عندك ولا تقوم بالذبح له ، أو حتى إعلامنا بمجيئه ، لا يجوز أن نسمع من الناس أن ابنكم قد عاد للبلد .

– إذا كنت تريد إحراجي فوفّر على نفسك ، ابن عائلتك طرق الباب عليّ ولم يطرقه عليك ، وطلب أن يمكث في بيتي ولم يطلب أن يمكث في بيتك ، واشترط ألاّ أقوم بإعلام أحد بوصوله ، أو أن أذبح له ولا يمكن لي أن أخل بشرطه الذي وافقت عليه .

– هذا أمر لا يجوز وليس من عاداتنا

– تريد أن تعلمني العادات والتقاليد؟ أين هي عاداتكم وتقاليدكم عندما استشهد أبو مبارك على بوابة قصر دسمان؟ وترك ابنه مع زوجته الكسيحة وحيدين بلا معيل ، أنا من كفلته وكفلت أمه ، حتى قرر أن يتركها ويهاجر ، ثم كفلتها بعد هجرته إلى أن ماتت ، أين هي عاداتكم عندما تركتموه وحيداً ولم تسعوا في أمر منحه الجنسية الكويتية؟ رغم أنكم كويتيون جميعاً ، وأعمام مبارك من أبناء عمومتكم كويتيون أيضا ، أنت يا أبا طلال تحاول أن تداري إهمالكم وبخلكم تجاه مبارك بإلقاء اللوم علي ، ثم إنكم تخافون كلام الناس أكثر من خوفكم الله

تجاهه ، ثم إن مبارك رحل منذ يومين وقرر السكن في فندق ما ، وليس بيني وبينكم وبينه شيء ، لا تدخلوني في خلافاتكم .

ساد الصمت المشحون بالحرج أجواء الديوانية ، ولم ينبس أبو طلال بكلمة أخرى ، مسح والدي العرق من على جبينه ، وانقض على كوب الماء ليداري به جفاف لهاته ، بينما رحت أعد الشقوق الموجودة على الحائط محاولاً تحاشي الموقف ، قبل أن يقطع أبو ثويني حبل الصمت الذي طوّق أعناق الحضور :

– جبر كان فارساً مهيوباً في الجزيرة ، انتصر في معركتين ضد والدي ثويني ، وروّع والي بغداد التركي ، ثم شارك في ثورة العشرين ضد العنقليز بعد سقوط الخلافة ، ويحي على زمان يهان فيه فرسان الجزيرة ويعز فيه الرعيان .

قال فيصل وهو يناوله فنجان القهوة :

– كلنا سواسية في الإسلام يا عم ، الفارس والراعي .

– تخسي .

رد العجوز بغضب وتعالٍ ، فيما غرق الحاضرون في موجة ضحك ، كان أبو ثويني سعدون بن ثويني ينحدر من عشيرة حكمت جنوب العراق طوال خمسة قرون ، ويعود نسبها إلى النبي ، لكن حكمها تبعثر بعد مجيء الاستعمار البريطاني ، ظل أبو ثويني على الدوام يلمز شيوخ القبائل الأخرى ، ويقول ، إن عشيرته لم تبع الدين ولم تطع الكفار ، رفضت الحكومة منح جزء كبير من أبناء عشيرته الجنسية الكويتية لأسباب مجهولة ،

لكنه كان يزعم أن الزعيم البريطاني تشرشل هو من أوصى الحكومة في الثمانينيات بعدم منح الجنسية لأفراد العشيرة ، ورغم أنه اكتشف فيما بعد أن تشرشل توفي قبل ذلك بعشرين سنة ، لا زال أبو ثويني مصراً على روايته التاريخية لها .

هدأت الأجواء قليلاً ، وشرع روّاد الديوانية بالانصراف واحداً تلو الآخر مع أول شعاع شمس اخترق النافذة مصحوبين بدعوات أبي لحضور حفل زفاف ثنيان شاهر ، وهو ابن أحد وجهاء القبيلة مساء اليوم ، وقبل خروجه رفقة حفيده أودع أبو ثويني مبلغ عشرة دنانير في جيب والدي معتذراً على ضيق اليد وقلة المبلغ ، طالباً منه تسليمه لمبارك كي يساعده على تدبر أمور الحياة ، رفض والدي قبول المبلغ مؤكداً أن مبارك لا يحتاج له ، لكن أبا ثويني لم يكن من الذين يقبلون بلا كجواب ، التفت والدي نحونا أنا وفيصل وقال ، هذا هو جيل الصحراء الطاهر يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، أما اليوم فقد خرّبتنا الحضارة وجعلت منّا مسوخاً وأذلاء .

***

مساء ذات اليوم كان والدي يرتدي بشته الذي ورثه عن أبيه عن جده ، متصدراً حفل زفاف ثنيان ، صفان من الرجال يرقصان العرضة ، حاملين سيوفهم الأثرية التي ما خرجت من أغمادها منذ سقوط دول الصحراء ، يتبع كل صف منهما صف آخر ، ويتبع الصف الآخر صف ثالث من الرجال المتمايلين على

الأنغام الحربية ، العرضة هي رقصة البدو الخاصة بالحرب ، لوحة لا متناهية من الفخر يلوّح فيها الرجال بسيوفهم قبل ساعة الموت من أجل القبيلة وشرفها ، في البادية يختار الفرد طريقه نحو الغزو لأن الموت في المعركة من أجل القبيلة يعني الخلود في ذاكرة الرواة ، ولا شيء أعز على البدوي من أن يحيا في ألسنة العرب ، تعالت أصوات لاعبي العرضة ، وهم ينشدون تحت راية القبيلة الحمراء المزينة بالنجمة والهلال الأصفر :

ميّة وتسعين عام ، فيها حكمنا القبايل
مية وتسعين عام ، دخيلنا ما يضام
دونه تثور البنادق ، دخيلنا ما يضام

راح هدير العرضة يرتفع ، وكلما زاد ارتفاعاً ضُخت النشوة في أوردة الحضور ، وازدادت معها أعداد الراقصين وسط القاعة ، جلس مبارك ومرزوق اللذان حضرا بإلحاح من والدي في زاوية العرس ، مثل ذئبين أصيبا بالجرب ، كان مبارك مشمئزاً من أولئك الذين يلعبون تحت ظلال السيوف ، ممجدين اسم القبيلة ومعاركها ، بينما هم في حقيقة الأمر قد خذلوه وخذلوا أباه وجده من قبل ، فيما كان مرزوق مستمراً في عزلته الأبدية عن المجتمع ، خجلاً من نظرات الشفقة وهي تصيبه كسهام منفلتة من رام مجنون ، طلب مرزوق مني أن نذهب إلى المقهى بعد انتهاءً العرس لنصفي النفوس ، وأشار مبارك إلى مقهى يقع

وسط العاصمة ، بجانب قصر السيف مقر الحكم .

قبل منتصف الليل بقليل ، انطلقنا في سيارة مرزوق ذات الدفع الرباعي ، وهي تصدر صوتاً مثل فحيح الأفعى ، بينما كانت عين مرزوق مركوزة في لوحة عدّاد السيارة خوفاً من ارتفاع حرارتها ، فجأة ومن حيث لا ندري ، مالت نحونا سيارة مرسيدس فخمة ، كانت قائدتها في لحظة شرود وهي تعبث بهاتفها ، زمّر مرزوق باتجاهها لتنبيهها ، فردت عليه بإشارة بذيئة بيدها ، وانطلقت بسرعة ، انفجر مرزوق غضباً ، جحظت عيناه ، وعض على لسانه بقوة ، ثم أطلق سيلاً من الشتائم لها ولأبيها وللفقر الذي جعلها تظن أن سيارته سيارة وافد ، ومن ثم يحق لها أن تفعل له ما تشاء في الشارع دون عواقب حقيقية ، ضغط على دواسة الوقود بقوة ليلحق بها ، لكن مبارك حاول إقناعه بأن سيارته لن تتحمل هذه السرعة ، رد مرزوق والزبد يتطاير من فمه ، إن الحرص على الكرامة أهم من الحرص على محرك سيارة متهالك ، ثم خفف من سرعته بعد أن أدرك عبث اللحاق بسيارة حديثة ، وراح يتوعد الأغنياء بالموت ، صارخاً بأعلى صوته ،سنسلب بيوتكم الفخمة وسياراتكم الفارهة ، بينما راح مبارك يضحك بجنون عليه ، والسيجارة في فمه وهو يضرب كتفه ويقول ، ستسرقهم وتصبح مثلهم ، ستحصل قريباً على كنز أحلامك أيها الشيوعي الأعرج .

تحلقنا حول طاولة خارجية في المقهى ، وبدأ مبارك حديثه :

– أعتذر عن حادثة الفندق ، كانت عملاً غبياً ، لكن من المهم أحيانا أن تقوم ببعض الأعمال الغبية في الحياة كي لا تفقد توازنك .

– مقدمة ذكية

– المقدمات الذكية تؤدي إلى نهايات سعيدة ، أليس كذلك يا مرزوق؟

رددت غاضباً :

– السجن ليس نهاية سعيدة

– بدأنا في مناقشة الأعمال مبكراً

ثم أكمل :

– لقد بدأت تتقبل الفكرة

– لن أتقبل فكرة مجنونة مثل هذه

تدخل مرزوق :

– أرجوك ، اسمع ما لدينا ، ثم اذهب .

لم أستطع التملص منهم ، وفكرت أن موقفي السابق معهم كان غير مهذب حتى اضطررت للبقاء مجاملةً لهم ، قال مبارك :

– سنختلس أموالاً كثيرة من وكالات سفر وسياحة ، ومن جمعيات خيرية ، عملية قصيرة تستمر لأسابيع قليلة فقط

– وكم هي حصة كل فرد؟

– ليس أقل من مليون دينار

– مليون دينار!

– أرأيت؟

– وهل ستكون هناك أسلحة؟

– لا لا ، إني أعدك بهذا ، ندخل ونخرج بسهولة ، بدون أن نستخدم سكيناً حتى .

– ماذا عن الهروب؟

– هناك ضابط في أمن المطار سيخرجنا جميعاً من مطار الكويت إلى مطار شارل ديغول في باريس ، ثم نتجه إلى مدينة مطلة على البحر اسمها كاليه ، حيث سيأتي أحد أصدقائي ، ويهربكم إلى بريطانيا ، ثم تجلسون أياماً في لندن قبل أن تقوموا بتسليم أنفسكم للسلطات لتحصلوا على اللجوء السياسي ، حيث سيعطونكم بطاقات هوية بأسماء جديدة ، بعد ذلك ستدخل الأموال إلى بريطانيا بطريقة شرعية ونوزعها عليكم

– لماذا لا نطير من الكويت إلى لندن فوراً؟

– إذا وصلت إلى مطار هيثرو مباشرة ، فإن بصماتك ستكون في النظام الجنائي البريطاني ، وسيعرفون هويتك واسمك الحقيقي ، أما إذا دخلت من فرنسا فستكون مجهولاً ، وستشكل قصتك كما تريد .

– لكن مطار الكويت صعب

– صدقني ، إن حياتي سلسلة متلاحقة من عمليات الهرب ، ومطار الكويت سيكون أسهلها ، دع الأمور لي .

شرب مبارك بقية فنجان قهوته دفعة واحدة ، ثم أطل على ساعته ، وقال إنه تأخر على موعد مهم في الفندق ، دفع ثمن الطلب ، وغادر مسرعاً عبر سيارة أجرة ، حرّك مرزوق كرسيه ليقترب مني ، ثم قال ، أنت لا تصدق هذه الحيلة المصطنعة؟ موعد بعد الساعة الثانية ليلاً ، إنه يريدني أن أختلي بك لأقنعك ويبدو لي أنك اقتنعت قليلاً ، فلنشرب قهوتنا ، وندخن سجائرنا في صمت ، وبعدها سنمشي في شوارع الديرة .

حاولت الاستفسار منه عن عنوان رواية تحدث لي عنها قبل مدة ونسيتها ، لكنه لم يكن مهتماً بالإصغاء هذه اللحظة ، أشار إلي بالسكوت ، وأخذ يسحب الدخان من سيجارته وينفث بهدوء ، وهو يتأمل شاباً في أوائل الثلاثينيات من عمره ، يداعب بيديه خد زوجته ، ويمرر أصابعه بين شعرها ، بينما كان ابناه يتشاجران حول أحقية الجلوس على أحد الكراسي ، ارتسمت ابتسامة غامضة على محيا مرزوق ، ارتشف رشفته الأخيرة من الفنجان ، وأطفأ سيجارته ، ثم اتكأ علي لينهض ، قبل أن يحمل عصاه التي نحت في أعلاها جملة ، يا عمال العالم اتحدوا ، وقال ، لنذهب إلى المشي يا رفيق .

كان ليل العاصمة هادئاً كعادته ، البنايات الشاهقة فيها خلدت إلى النوم ، والمكاتب التجارية التي تمتلئ ضجيجاً كل

صباح بلغة الأرقام والأموال ، خضعت إلى لغة السكون ، والهواء الصيفي الحار المعبّق برائحة البحر ، كان يضرب وجوهنا برقّة ، صارت المدينة التي تنتج كل يوم بحاراً من النفط ، تحت أرجلنا نحن الاثنين ، أحسسنا بالقوة ونحن ننتقل وحدنا بين البنك المركزي ، ومقر البورصة وصولاً إلى مسجد الدولة الكبير ، كما يتنقل المرء بين ممتلكاته ، قال مرزوق وهو يشعر بنشوة النصر :

– اخترت أن نمشي في هذه البقعة بالذات ، حتى تستسهل المجد ، انظر إلى تلك المؤسسات التي تخيفنا ، إنها مجرد بنايات بشعة وفارغة ، لا جدوى منها ، انظر إلى ضعفها ثم انظر إلى شموخك أنت أيها الإنسان ، هذه البنايات نحن من شيدناها ، ونحن من يستطيع أن يهدها ، نخاف منها في النهار ونظنها شيئاً عظيماً ، ونضحك عليها في الليل .

– هل هذا جزء من عملية إقناعي؟

– سأقول لك شيئاً ، هل رأيت ذلك الرجل في المقهى مع زوجته وابنيه والخادمة التي ترعاهما؟ يبدو سعيداً أليس كذلك؟ سألعب لعبة التخمين التي أجيدها معه ، ربما يعمل خبيراً قانونياً في وزارة ما ، راتب جيد مع أربع علاوات ، الزوجة مهندسة في وزارة الأشغال ، راتب جيد لها أيضاً بلا عمل حقيقي تؤديه ، شقّة مؤجرة في أحد ضواحي جنوب السرة بانتظار بيت العمر ، وسيارتان فاخرتان ، الابنان يدرسان في

مدرسة ثنائية اللغة ، والعائلة تسافر كل صيف إلى لندن ، وباريس ، وميونخ ، وفي الشتاء إلى دبي ، والدوحة ، لديهم منزل صيفي مؤجر بشكل سنوي في جنوب الكويت ، نمط الحياة التي يطمح لها كل أبناء تيماء ، حياة كانت مقدرة لي لولا سحب الجنسية ، لكنني اكتشفت أن الله خلقنا لمهمة أسمى .

– لقد خُلقنا لنذل يا صديقي

– هل فكرت مرة بأن هذا الذل كان نعمة لنا؟ الطبقة الفقيرة لديها لعنة وهي أنها تريد أن تصبح متوسطة الغنى ، الطبقة الوسطى لديها لعنة وهي أنها تريد أن تصبح غنية ، الطبقة الغنية لديها لعنة وهي أنها تريد أن تصبح أكثر غنى ، لكننا نحن التائهون عن التاريخ ، المتروكون خارج دفاتر الأوطان ، ليس لدينا هذا الهوس بالارتقاء نحو طبقة أعلى ، لأن هدفنا الأسمى هو تدمير كل هذه الطبقات .

التفت لي :

أيها الرفيق ، لقد خلقنا الله لنناضل ، لنعبّد الطرق الوعرة ، لنهد الجبال الشامخة التي تحجب عنا نور الشمس .

– لكن النضال يكون بالطرق الشريفة

– لا يوجد ما هو أشرف من أن تسرق هؤلاء .

قالها وهو يشير بعصاه نحو مبنى سوق الأوراق المالية .

– نحن سنسرق أموال الفقراء من الجمعيات الخيرية

– يجب أن تقوم ببعض الأعمال الشنيعة لنعجّل بالنصر ، لا يمكن لعجلة التاريخ أن تتحرك بلا دماء ، في الفقه الإسلامي هناك قاعدة تسمى الضرورات تبيح المحظورات ، ثم هوّن عليك ، لن يموت الفقراء جوعاً لأننا نسرق من هؤلاء الذين يعطونهم بالقطّارة ، لأننا سنسلمهم ثروة الأمة فيما بعد

– أنت لا تسرق لنفسك؟

– لا بالطبع ، أنتم اذهبوا واستمتعوا بهذه الحياة ، اسكنوا في الفنادق الفخمة ، وتناولوا في المطاعم الراقية بحصتكم ، أما أنا فسأكرس نفسي من أجل الثورة ، سأنشئ بحصتي صحيفة ثورية اسمها الشرارة .

– احذر أن يعتقلوك بتهمة امتلاك أحلام تمس السيادة العامة

ضحك مرزوق ، كانت هذه نكتته التي يرددها دوماً .

– دعنا من هذا ، ألم يتعبك الجوع؟ ألم يسحق روحك كل هذا الفقر؟ علام التردد إذاً؟ إن الحياة لا تبتسم إلا للشجاع

– أنا أشعر بالخجل

– لا تخجل من الجوع يا فارس ، حتى الأنبياء يموتون جوعاً

– لا ، أنا خجل من أني سأسرق

– هذه هي ميزة ألا تكون نبياً ، لست بحاجة لأن تبرر لأحد سرقتك

أمسك مرزوق وجهي بكلتا يديه ، وضغط عليه بقوة :

– فارس هذه الأرض ستمتصك حتى آخر ضحكة فيك ، اهرب ودعك منهم ، العائلة والقبيلة ، والوجاهة ، اسألني عنهم لقد جربتهم كلهم ، لن يفيدوك ، أنت إنسان غير مرغوب فيه هنا ، فلماذا تتمسك بأناس لا يريدونك ، اجمع ما تبقى من كرامتك وغادر .

(٣)

أهملت قلبي في السابق حتى غدا مثل أرض خربة ، لم أفكر يوماً في الحب ، كنت أراه فعلا مترفاً لا يليق بفقير مثلي ، زرع المحيطون بي ، والمشحونون بالغضب والثورة ، و التغيير ، دوماً هذه الفكرة في رأسي بلا وعي مني ، لكن مريم ضغطت بإصبعها على موضع ما في قلبي ، فانفجر ينبوع الحب من أرضه المتصلبة ، راوياً سهوله القاحلة ، وصار قلبي يزهر كلما تشممت عطراً يشبه عطرها ، صرت ألمحها في وجوه العابرين كل مرة ، أقف مشدوهاً أمام قامات شبيهاتها من النساء ، ملامحهن المائلة للسمرة ، ووجوههن الطويلة ، ابتساماتهن البيضاء ، ولباسهن الزهري القصير الذي يفضلن ارتداءه في الصيف ، تأججت النيران في داخلي ، أدمنت سكرة الحب وعشقتها ما إن تذوقتها ، كان طعم الأيام مع مريم ، يشبه طعم أيام آدم مع حواء قبل الطرد من الجنة ، ونشوة الحب كانت تعطينا وهم الخلود الأبدي ، تصبح الأشياء فيها غير مهمة ، وتغدو الدنيا مجرد حدث هامشي يعمل من أجلنا ، الآخرون مجرد ممثلين في مسرح الحياة ، ونحن أصحاب النص الأصلي .

كانت ليلة موعودة ، قررنا الاحتفال بمرور شهر كامل على

لقائنا الأول في ذاك المقهى الصغير ، جلبتُ العشاء من مطعم هندي فاخر ، دستة كاملة من المشروبات الغازية ، شموع صغيرة ، مفرش بحري ، وطلبت من مريم أن تنتظرني أمام مرسى سوق شرق منتصف الليل ، ركنت سيارتي في أبعد نقطة عن المرسى حتى لا تراها ، ومشيت مسافة طويلة قبل أن أصل رفقة عشائي ، مازحتها ، لقد استطعتِ الخروج ليلاً ، أجابت ، إنني امرأة مستقلة وقوية أيها الذكوري ، أخذتها إلى الممشى الخشبي داخل المرسى ، ثم انعطفنا يميناً إلى أحد اليخوت الفخمة ، صعدت على السطح بحركة واحدة ثم تبعتني قبل أن أرتب المفرش و أشعل الشموع .

قالت :

– عن ماذا ستتحدث اليوم أيها المراوغ الطويل؟

– مثل الحديث كل مرة ، عنكِ أنت وحدك

– عنّي؟ لم لا يكون عنّا

– لماذا أعجبت بي؟

عضت على شفتيها :

– هناك سحر يحيط بك ، ثلاثون عاماً من الحياة ، زواج فاشل وابنتان ، ومع هذا فإني أفقد عقلي كلما رأيتك

– وهل تظنين أني لا أفقد عقلي أيضاً؟ مريم . . مريم

– . . .

– هناك شيء يجب عليّ أن أقوله .

- ما هو؟
- أنا بدون
- أعرف ، لمحت بطاقتك ذات مرة من محفظتك
- ولماذا لم تعلقي؟
- لم يكن هناك داع للتعليق
- وتركتيني في حيرتي كل هذه المدة ، أنت لا تعلمين كم يجب على المرء أن يتحمل من آلام ، حتى يخبئ سراً مثل هذا
- أنا منفتحة على كل هذا
- لكن المجتمع ليس منفتحاً

لكزتني بكتفها :

- غازلني أيها الغبي واترك عنك المجتمع
- ابتسامتك تفتت قلبي
- أعلم
- وعيناك يفقداني شهوة الصمت ، ويدفعاني للكلام .

استولى شعور عارم بالخجل علينا ، كان قلبي في لحظة الصمت هذه يحلّق في السماء السابعة ، يحوم حول سدرة المنتهى ، ويطرق أبواب الجنة بجناحيه الصغيرين .

استعادت مريم الرغبة في الكلام ، حكت طويلاً عن أختها التي ماتت في طفولتها ، وعن ابنة عمها التي حاولت الزواج من رجل ذي نسب غير أصيل فما أفلحت ، لاحظتها وهي تتحسس بإبهامها الندبة الظاهرة على مفصل يدها الأيسر ،

كانت تحكي بألم عن عائلتها التي تبدو متحررة في الأفكار واللباس وأسلوب الحياة ، لكن أي شيء من شأنه أن يحط من منزلتها ، أو ثروتها المالية ، فإنه غير مسموح ، كان الزواج محصوراً بين العائلات الغنية التي جاءت من قرى نجد العتيقة ، فحينما تقرر عائلتان دمج شركتين يملكانهما فإنهما يتزوجان من بعضهما ، قالت وهي تئن ، الكل يرانا النساء الأكثر حظاً وغنى ، لكن آباءنا الذين يبشرون بالحرية في الصحف والقنوات ليسوا كذلك معنا .

لم تبارح السيجارة موضع فمها وهي تروح في غيّ الكلام ، مررت بكل الحالات واعتنقت كل الأفكار ، تحجبت لسنتين وعشت في المكسيك لشهر كامل ، جربت كل الأشياء وزرت كل البلدان ، لكني تائهة يا فارس ، أريد أن أحيا معك ، أنت بقلبك الأبيض ، تبدو ساذجاً وفقيراً وعاشقاً ، لا أريد أن أكون طموحة ، لا أريدنا أن نفكر في الغد ، أريد اليوم فحسب ، تعال معي ، سنسكن أنا وأنت ونترك العالم لهم ، ونتفرغ لعالمنا ، خبأت الكلام في داخلي ، لم يكن موضع حديث ، لكن رؤيتها لي ساذجاً فقيراً جرحت كرامتي ، أنا العربي لن أكون عالة لامرأة ، فلتقل عني ما تقل ، ذكوري وقح ، أو رجعي قديم ، ويحك يا فارس ، تنزوي من تحت ظل السيف إلى ظل امرأة ، رنّت كلمات مبارك في إذني ، وهو يصرخ فيّ ، اخس واعقب!

***

بعد الموقف المذل مع مريم عقدت العزم على الاشتراك في العملية ، سرت نحو بيت مرزوق الذي كان يقع في الشارع الخلفي لبيتنا لأعطيه الموافقة النهائية ، طرقت الباب بقوة ، لكنه لم يكن موجوداً على غير العادة ، خرج بثياب النوم على عجل قبل ساعتين ، هكذا أخبرتني أخته من خلف الستار ، في طريق عودتي للبيت صادفني مهدي ، أين كنت؟ قالها لي وهو يلهث ، مرزوق يبحث عنك ، الجميع في بيت مضحي ويحتاجونك الآن ، حاولت الاستفهام منه عن طبيعة الموقف لكنه طلب مني الركض معه ، في الطريق و رغم الحروف المتقطعة التي كانت تخرج من فم مهدي بفعل اللهاث ، فهمت أن أحد أبناء عمومة مبارك كتب فيه قصيدة بسبب إعراضه عن السلام عليهم في حفل الزفاف ، ثم قام مبارك بشراء قصيدة من أحد الشعراء الشباب يهجو فيها أعمامه ، واصفاً إياهم بالبخل ، والجبن ، وخيانة فروسية جدهم ، ومؤكداً على أن هجرته إلى لندن لم يكن سببها المال ، بل سببها أمر يعرفونه جيداً ، لم يتحمل أبناء عمومة مبارك هذه الإهانات ، فتجمعوا وساروا نحو بيت قريبه من أمه مضحي ، بعد أن علموا بجلوسه هناك ، وجد مضحي نفسه في مأزق حرج ، كانت شيمته البدوية تمنعه من تسليم ضيفه لأعدائه ، وفي نفس الوقت كان يعلم خطورة أبناء عم مبارك ، ومناصبهم العالية وقدرتهم على إلحاق الضرر بشاب بدون مثله ، فاستنجد بمرزوق الذي استنجد

بي ، وبحسب مهدي كانت القصيدة مهينة ، وتحمل رموزاً من التي يتفنن بها الشعراء طعناً بالأعراض ، وتعريضاً بالأنساب .

استغل مبارك رغبة الشاعر المجنونة في أن ينتقم من هؤلاء الأنداد ، الذين يماثلونه في الأصل ، والعرق ، واللون ، والحسب لكنهم يفوقون عليه بالورقة السوداء ، فدفع له ألف دينار ليكتب فيهم قصيدة هجاء صارت حديث الناس في الجهراء .

وصلت إلى المكان أمطر عرقاً وألهث ، بينما كان الجفاف يصيب لساني بالتصحر ، سقط مهدي على الأرض تعباً يبتغي الراحة ، وجاء مرزوق بعرجته مسرعاً نحوي يطلب مني التفاهم مع جماعتي ، إنهم مجانين ، قال لي وهو يشير بيده نحوهم .

اقتربت من الحشد الغاضب وسرعان ما لاحت لي وجوه كثيرة أعرفها ، أصدقاء لأخي ، أبناء لأصدقاء أبي ، أبناء لوجهاء القبيلة ، وتجارها ، وسياسييها ، تعرفت على وجه عثمان ، كان يلعب كرة القدم في المراحل السنية بنادي الجهراء الرياضي رفقة أخي سعود ، أشرت له بيدي والتقينا خلف المنزل ، أنا وعثمان ومرافق معه لا أعرفه ومرزوق الذي كان مصدوماً وخائفاً ومهدي ، بينما تجمع الجيران يحاول بعضهم تهدئة الموقف ، ويحاول آخرون معرفة الحدث ليلوكوه بألسنتهم فيما بعد ، مضيفين إليه بعض الرتوش والمبالغات ، قلت له بعد السلام :

- عثمان ما هذا الجنون؟ إن أحد أبناء عمك يحمل سلاحاً

- هذا جنون؟ إذاً ماذا تسمي من طعن في أعراض بنات عمه بقصيدة ونشرها بين الناس بصوته

- نسميه ديوثاً

قالها مرافق عثمان ، وهو يمد يده نحوي محاولاً ضربي ، فيما كان مهدي ومرزوق يمنعانه ، التفت عثمان نحو مرافقه وقال :

- إنه فارس ابن الشيخ

- الشيخ اللي ما يغار على بنات عمو هذا شيخ ضراط

كتمت غيظي و ابتلعت إهاناته بصعوبة بالغة ، لم أشأ أن أزيد الموقف احتداماً وأفتعل مشاجرة أخرى ، كما لم أشأ أن أشوه صورة والدي في الوقوف مع مبارك بعد فعلته الشنيعة ، كانت الولادة لبيت إمارة فقير أمراً بالغ الصعوبة ، يجد فيها الإنسان نفسه مقيداً بطقوس من العادات والتقاليد ، وفي نفس الوقت يكاد يتلوى من الجوع و الفقر ، كان على شيخ القبيلة أن يتصرف كأمير ثري براتب إسكافي فقير ، قلت لعثمان إن القصيدة يمكن أن تكون ملفقة على مبارك ، لكنه أراني مقطع فيديو له وهو في حالة غير طبيعية ، يقرأ من ورقة ويحاول اصطناع لهجة الشمال البدوية الخالصة رغم أنه لم يكن يتحدثها على الدوام ، تحويل ضمير الهاء إلى واو ، حذف حرف

ضمير الياء ، وفتح الحرف ما قبل ضمير الكاف ، كانت لدى قبيلتنا مشكلة مع الضمائر معنوياً وحسياً ، هكذا كان يقول أخي الراحل سعود محاولاً إثارة جنون أبي وهو يقهقه ضحكاً .

شدهت من شدة أبيات القصيدة وتعريضها الفج ، كانت تشتمل على ألفاظ في ظاهرها المدح وفي باطنها الطعن ، لم يكتف مبارك بسب أبناء عمومته فحسب ، بل راح يسب عائلات القبيلة الثرية ، ويصفها بالبخل و قطع الأرحام ، كان مرزوق يستمع للقصيدة للمرة الأولى ، وكلما ازدادت ألفاظ مبارك شدة انبسطت أساريره ، انتهت القصيدة وراح مرزوق يجاهد في إخفاء ابتسامته ، فيما كان مهدي يوزع نظراته الخبيثة علينا وهو ينكش أسنانه بعود من خشب ، بيده التي زيّنها خاتم من حجر كريم ، تصنعت الغضب على مبارك ورحت أطلب من عثمان الهدوء وسحب أبناء عمه مؤكداً على تدخل أبي وأعيان القبيلة في المسألة بأسرع وقت ، فيما كان عقلي يفكّر بالورطة التي أوقعنا فيها مبارك ، كانت هذه القصيدة الغبية ستُفشل خطتنا بلا شك .

انسحب أبناء العم بعد وعودي بتدخل أبي ، فيما دخلت إلى منزل مضحي ، كان مبارك يدخن بلا مبالاة وهو يلعب الورق رفقة الشاعر مؤلف القصيدة ، وإخوان مضحي ، فيما كان مضحي يتصبب عرقاً من الخوف ، وبلا مقدمات أمسكت مبارك من تلابيبه وصرخت فيه هل أنت مجنون؟ نفث دخانه

بوجهي ، رتب ملابسه وعاد للعب مرة أخرى ، قلت له :

- لا تشتم أعراض الناس وتطلب مني التدخل

- لم أطلب منك شيئاً أنت من جاء

- ماذا سيقول عنّا الناس؟

- فليقولوا ما يقولوا وكأن كلامهم سيحدث فرقاً ، هؤلاء يعيشون في النعيم ، والنسيم ، والقصر ، وجنوب الجهراء ، في بيوتهم الواسعة ويفاخرون بتاريخ أجدادي وأجدادك ، ويتحدثون عن الكرم والجود والعطايا وإذا طلبت منهم ديناراً واحداً تصددوا عنك ، انظر إلى حالك ، انظر إلى البيت الذي نجلس فيه

التفت نحو مضحي وراح يصرخ فيه :

- كم عمرك يا مضحي؟

أجاب بصوت منخفض وهو يحاول فهم مغزى مبارك :

- ثلاثة وثلاثون

- هل أنت موظف؟

- لا

- هل إخوانك موظفون؟

- اثنان منهم يعملون حراس أمن

- هل يكفيهم معاشهم؟

- لا

ثم التفت نحو إخوان مضحي وصرخ بصوت أعلى :

- هل تكفيكم معاشاتكم؟

أجابوا بصوت خافت اختلط فيه الحرج :

- لا

لا لا لا ، هل تسمع؟ هل ترى؟ ابن عم مضحي وكيل وزارة الأشغال ، أليس كذلك يا مضحي؟ هل طرق بابكم يوماً من الأيام؟ هل قال سأوظف واحداً من أبنائكم في وزارتي ، بدلاً من أن تجلب وزارته موظفيها من كل أقطار الأرض ، لا لا لا ، هل أفادك ابن عمك الآخر في استخراج جواز سفر لعلاج أختك التي توفيت؟ لا لا لا أليس كذلك؟ الجواب هو لا في كل هذه الحالات ، إنك لا تريد أن ترى ما نحن فيه يا فارس ، أو أنك ترى لكنك تتجاهل لأن مشيخة القبيلة لا تتناسب مع الشتائم ، اشتم حتى يذهب صوتك ، اشتم بأقصى طاقتك ، هؤلاء الجالسين كلهم فرحون بالشتائم في القصيدة ، انظر إلى مرزوق ، أراهنك بأنه مسرور ، أنت مسرور أيها الحضري أليس كذلك؟ هؤلاء سفلة ، يعترفون بنا وقت الأحزان فنصبح أبناء القبيلة وأحفاد فرسانها ، ووقت الأفراح ، نحن مجرد نكرات بلا إثبات ، حتى الوطن ، حتى وطنك السخيف هذا ، ينادينا وقت المصائب ، الكويتي والبدون واحد ، تعالوا قاتلوا من أجل وطنكم ، وعندما تنقشع الغمّة ، يبصقون علينا ، أنتم دخلاء ، أنتم مزورون ، لقد مات أبي على بوابة قصر دسمان مدافعاً عنهم ، ثم ماذا؟ ثم ماذا؟ هل هناك شاهد على المحبة أكثر من أن تموت من أجل الوطن؟ لقد مات والدي من أجل وطنه ، ثم

هربت إلى لندن في صندوق داخل طائرة .

ثم أخرج ورقة نقدية من فئة العشرة جنيهات استرلينية ، ووضعها على جبينه قائلاً ، هذه هي جنسيتي ، المال هو وطني ، والملكة إليزابيث هي شيخة قبيلتي ، أنت تتمسك بالماضي الغابر ، أتذكر حينما قلت لي ، إن الماضي ينتهي ، أقولها لك الآن ، إمارة جدك انتهت ، أنت الآن مجرد حقير ، كما هو حالي ، وحال الآخرين هنا ، تعايش مع هذا ، البشت الذي تحلم بارتدائه كأبيك ، سيجعلك مهرجاً مضحكاً فيما بعد ، استفق ، هذا ليس عصر البدو ، يا راعي الإبل .

أنهى مبارك وصلة أحقاده التي كان يضمرها ، ثم خرج غاضباً من الديوانية ، تبعه خروج مرزوق ومهدي قبل أن ألحق بهم وهم يهمون بركوب السيارة ، قلت لمرزوق إني أريده مع مبارك على انفراد ، قال لي مبارك ، إذا كان كلامك بشأن العملية فإن مهدي معنا ، قلت لهم إني أريد الاشتراك ، غمز لي مرزوق بعينه ، نعم أيها الشجاع ، افعلها ، فلنهز الدنيا من تحت هؤلاء الكلاب . أبناء الكلب ، فيما ارتسمت ابتسامة صفراء على ملامح مهدي ، وصرخ مبارك ، كفو يا بطل ، ثم أكمل ، عندما أصرخ فيك فذلك لأني أحبك ، أريد لك الخير ، كما أريده لكل من ينتمي لنا .

ركبت السيارة مع الثلاثة ، وسألت مهدي ساخراً فيما إذا كان الأئمة يوافقونه على هذا العمل؟ هز مهدي رأسه ،

سيغضون طرفهم هذه المرة ، استفسر مبارك عن حادثة الأئمة ، فشرح له مهدي الذي كان يكنى بنهاش في سنيّ مراهقته عن قصة توبته من سرقة السيارات التي اشتهر بها ، رأى الإمام علي بن أبي طالب في المنام وهو يضع له خاتماً بيده ، ويدعوه إلى اعتزال الدنيا لله ، واظب مهدي بعدها على حضور الدروس في الحسينيات ومجالس العزاء ، استنكر مرزوق ، إنكم غريبون أيها الشماليون ، نصفكم شيعة ونصفكم سنة ، وكلكم عرب ، رد مهدي باستنكار ، هل موالاة أهل البيت حكر على الفرس؟ لم يعلق مرزوق ، لكن مبارك حاول إذكاء الصراع قائلاً ، عندما كان أجدادك يروعون صحراء جنوب العراق بحروبهم ، كان أجداد مرزوق يمارسون تجارة المانجا في الهند ، قهقهنا جميعاً ، عدا مرزوق الذي رد غاضباً ، لم يكونوا يتاجرون بالمانجا ، ثم إن التجارة خير من السلب والنهب أيها البدو الجهلاء ، عدنا للقهقهة جميعاً هذه المرة .

(٤)

لم أعرف طريقةً مناسبةً لإخبار أبي بعزمي الهجرة نحو لندن ، كان يعز عليّ أن أخبره بأنه سيفقد ابنه الثاني في غضون أعوام قليلة ، ليهرب إلى بلاد بعيدة ينهشه فيها البرد وتقضمه الوحدة ، توصلت إلى حل وسط بمساعدة مرزوق ، وهو أن أترك مهمة إخبار أبي لابنه المفضل ، فيصل ، دلفت إلى داخل الديوانية حيث كان يجلس بمظهره المعتاد ، دشداشة وغترة بيضاء بلا عقال ، مطيباً برائحة العود والبخور ومتوسطاً أكداس مجلدات من الكتب السوداء والمذكرات الصفراء التي كتب جلّها بخط يده ، وغارقاً حتى رأسه في القراءة و تسجيل الملاحظات ، ومحتضناً كوب الشاي الذي لا يكاد يفارقه ، جلست بحذر على مقربة منه مفتتحاً حديثي :

– هل تذكر كيف وضع سعود المكتبة في الديوانية؟

– لقد تشاجر مع أبي مدة شهر كامل

ضحك فيصل وهو يتذكر الأيام التي خلت

– أنا أذنب كثيراً هذه الأيام

– الخطيئة فعل أصيل في الإنسان ، لكن لذة الدنيا تكمن في مجاهدتها

– خطاياك صغيرة بالنسبة إلي ، أعرف عن اختلاسك اللحظات لتستمع إلى أغنيات عبدالحليم في غرفتك .

– هذه خطيئة ، أعترف ، وقع الصالحون قبلك في النساء وغفر الله لهم بعدما تابوا

– كيف عرفت أنني في خطيئة مع امرأة؟

– أنت صفحة مكشوفة

– الأمر أكبر من هذا ، أنا إنسان بشع وحقير

– كلنا كذلك ، حتى يأتي الموت فيأخذنا ، ونُرد إلى سيرتنا الأولى ، هل فكرت في ذلك من قبل؟

– في الموت؟

– لا ، في العمل لما بعد الموت

– أنا . .

– غير متيقن؟

– أحس بأن هناك سراً يخفى عليّ ، يعرفه الناس ، لكني لم أصل إليه بعد ، أصلي وأصوم لأني وجدت نفسي أفعل هذا منذ صغري ، لكن سؤالاً فيّ لا يزال يضطرم ، أريد أن أخبته لكني لا أستطيع .

– أنت تلعب على احتمالين

– أراهن على كليهما ، نعم .

– الذين يراهنون ضد الإله سيفشلون حتماً ، هذه ليست أسئلتك وليست أفكار مرزوق ، هناك شخص ثالث .

– أنا لست كفؤاً لأسأل؟

– السؤال ليس ثورةً غير منضبطة يا فارس ، كل الأسئلة حتى تلك التي توجه إلى صاحب الأسئلة نفسه ، هي أسئلة موجهة

– هذا سؤال؟

– هذا توجيه

ابتسم قليلاً ثم أكمل :

– لا أستمع لحليم فقط ، بل أعزف بعض الألحان على العود ، كشف سعود شغفي فعلمني

– كان معلمنا في الحياة ، ومفكرنا الذي لا يهزم ، لكنه في نهاية الأمر ، هزم نفسه ، نحن مدينون له بالوعي ، رغم أن الوعي ثقل متعب ، ربما ترك لنا إرثاً مزرياً ، أما زلت تظن أن علينا السمع والطاعة؟

– وهل هناك خيار آخر لنا ، انظر إلى البلدان حولك ، الأفكار التي في رؤوسكم أفكار طفولية

– لكنها تغيّر التاريخ

– هل أنت مستعد أن تدفع حياتك وحياة آلاف الأطفال ثمناً لتغيير التاريخ ، لا أحد يريد أن يدخل التاريخ سواكم أيها الثوريون

– إنك لن تغيّر شيئاً

– من قال لك إني أريد ، أنا مرتاح الآن ، حياتي ستكون

في خمسة وستين عاماً ، انتهت ثلاث وعشرون منها وبقي لي كم؟ لنحسب . . اثنان وأربعون ، أضيّعها في السجون والمنافي لأكتب التاريخ؟ سأستثمرها في تربية أبنائي ودراسة العلوم الشرعية ، معداً لآخرتي التي ستأتي حتماً .

– أنا اخترت أن أغيّر التاريخ

– وستتحمل كل العذابات؟

– سأشربها شرباً ، لأني سأهاجر إلى لندن بعد أسابيع

أنزل بهدوء كوب الشاي الذي كان يشربه ، ومجّ المتبقي منه في فمه داخل الكوب ، نظر إليّ بسكون ثم قال :

– وأبوك ، ستتركه مفطور القلب؟ أمي ثم سعود والآن أنت ، فكّر في عواقب ما ستفعله على عائلتك .

– ألا يمكن لمرة واحدة أن أفكر خارج إطار عائلتي؟

– ليس لديك إلا العائلة ، وإذا خذلتها ، ستصبح منبوذاً .

أطرق فيصل رأسه مفكراً ، بينما وضعت يدي على جبيني ، منتظراً زوال اللحظة ، دفن وجهه في كفه ، وبدأ يبكي ، ويقول ، انظر إلى الموت ، إنه يأتي بغتة ، كفاك به واعظاً ، وفكّر بالأمر الذي أنت مقدم عليه ، سترى أن كل أعمالك هذه ، عدا التي تحاول أن ترضي فيها الله ، لا طائل من وجودها ، قام بها ألوف الألوف من قبلك وماتوا ، وسيقوم بها الألوف من بعدك ، وسيموتون .

أثارت الموعظة القصيرة الأثر فيني ، لم أفكر يوماً بالموت ،

شاغلته بهموم الدنيا كي أستريح من عناء ثقله على قلبي ، لكن عندما تخرجت من الجامعة أزاحت الدنيا ستارها علي ، فانفرد بي هاجس الموت ، راح يعبث بعقلي حتى غدوت ألعن علماء الدنيا لأنهم لم يكتشفوا سر الخلود ، تيقنت أن الموت يحيط بي من كل جانب ، وعرفت أن النفس البشرية تظن أن مآسي الآخرين لا يمكن أن تطالها ، لأن إدراكها أفضل من إدراك أولئك الذين طالتهم ، لكنهم يستيقظون في اليوم التالي وهم عالقون في وحل المأساة ، يرقبون نظرات شفقة الآخرين وهي تعري أجسادهم الملطخة .

أطلقت زفرة طويلة من صدري :

– لقد تعبت

هممت بالخروج من الديوانية ، لكن والدي ولج من الباب وهو يتنحنح ، وصل نحوي ثم قبلني وعانقني طويلاً ، أعاد الكرّة مع فيصل ، ثم جلس وأشار إليّ بيده قائلاً ، هل لديك سيجارة؟ قلت له إنك توقّفت عن التدخين منذ مدة ، حملق فيّ منتظراً سيجارتي ، فمددتها إليه ، أشعلها ، وهو يقول إني أحبكم أبنائي ، تبادلت نظرات الاستفهام مع فيصل ، فيما كان والدي يدخّن وهو شارد الذهن ، أنهى سيجارته ، ثم غادر مرتبكاً ، هل هذه بوادر الخرف على أبي؟ تساءلت بخوف ، بينما صمت فيصل ولم ينطق بكلمة ، كانت صدمته أكبر من أن تستوعب الموقف

(٥)

انغمس الجميع في دوامة الاستعداد للعملية ، جمع مبارك الطاقم الذي اختاره بعناية وبمعايير محددة ، فيما تولى مرزوق مهمة التنسيق ومهدي مهمة تأمين المعدات اللازمة ، دعينا لاجتماع تعريفي بين أفراد الطاقم في مطعم لبناني على شاطئ البلاجات ، استقبلنا مدير المطعم بحفاوة مبالغ فيها وأجلسنا على طاولة كبيرة لا يفصل بينها وبين البحر سوى حاجز زجاجي ، أسرتني عمارة المكان وديكوراته الفخمة ، فيما راح الندّل يطوفون من حولنا ، والابتسامة المصطنعة تزيّن وجوههم ، أحسسنا ونحن نتصفح قائمة الطعام الباهظة الثمن بإحساس رجال الأعمال الأغنياء ذوي النفوذ ، راح كلٌ من مهدي وضاري وفايز ومتعب يعبثون مع بعضهم بالسكاكين الفاخرة قبل أن ينهرهم مبارك طالباً منهم التصرف كرجال محترمين ، امزحوا مع بعضكم في مطاعم لندن ، قال لهم بحزم ، همس مرزوق لمبارك عن شيء ما في إذنه ، رد مبارك بابتسامة فاترة ، التفت إليّ مهدي وهو يغرس أسنانه في الخبز الحار :

– لا مزيد من مطاعم الصناعية بعد اليوم .

- ماذا تنوي أن تفعل بأموالك؟
- سأستثمرها مدة سنتين ثم أجلب عائلتي كلها ، وأنت؟
- لا أعرف بعد
- تأجير الشقق للسياح وبيع تذاكر مباريات كرة القدم هي أكثر الوظائف ربحاً ، مبارك كان يعمل فيها
- ربما سأدرس الفلسفة
- فلسفة! ماذا ستعمل عندما تتخرج؟
- باحث
- تقصد باحثاً قانونياً؟
- باحث في المعرفة
- غريب! أنت غريب يا رجل!

انتهت محادثتنا الصغيرة بسرعة ، وشرعت أعبث بالأواني الفارغة تضييعاً للوقت ، وبعد برهة جاء كبير الطباخين يرافقه جيش من الندّل ليقدموا الأطباق الرئيسية ، قلّب خليفة بعينيه محتويات الأطباق باهتمام بالغ ، بينما أخذ مهدي يأكل بنهم من أحد الأطباق وهو في يد النادل ، صافح مبارك كبير الطباخين ثم عانقه ، وربت على كتفه قائلاً ، كان أنطون مدير أول مطعم عملت به عند وصولي إلى لندن وله الفضل الأكبر عليّ ، رد أنطون بتواضع ، أنت أخي ، تعانقا مرة أخرى ، ثم قال أنطون ، سمعت أنكم رجال أعمال مبتدئون ، نصيحتي لكم هي كونوا مثل هذا الرجل ، شعر مبارك بالتقدير ، وضع يديه

على عينيه كمن يمسح دموعه مازحاً ، بينما غادر أنطون وهو يتمنى لنا وجبة شهية .

رفع مبارك كأس المشروب الغازي وصرخ ، لا مزيد من المطاعم الرخيصة ، لا مزيد من الساعات المقلدة ، لا مزيد من السيارات القديمة التالفة ، لا مزيد من الفقر بعد اليوم ، سيدين لكم أبناؤكم بالفضل فيما بعد لأنكم قمتم بهذه المهمة ، سواء عرفوا بها أم لم يعرفوا ، قطع مرزوق كلام مبارك وقال إنه يتمنى أن يخصص كل شخص مبلغاً صغيراً من حصته لدعم النشاطات الثورية ، لكن أفراد الطاقم قذفوه ببقايا الخبز المفتت وهم يسخرون منه ويمازحونه .

بعد انتهاء الغداء تفرّق الحضور ، وراح مبارك يغازل نادلة شقراء في المطعم ، همس لي ، إنها من أرمينيا ، بعد ذلك ، أخذني مرزوق في جولة مشي على الشاطئ ، اشتدت عليه آلام رجله فقررنا الجلوس على كرسي اسمنتي ، هتف قائلاً ، إنه من الصعب أن تكون محباً للمشي وأعرجاً في نفس الوقت ، مازحته ، ومحباً لكرة القدم أيضاً .

ظل مرزوق يكز الأرض بعصاه وكزاً خفيفاً وهو جالس ، علّق عروتها على رقبته ثم شهق شهقة كبرى وهو يتأمل صفحة ماء الخليج الراكدة ، هذه الأرض البيضاء يا فارس وهذا البحر اللامع أمامك ، هما ما شكلاني ، هذا الوطن الذي أفدي كل شبر فيه هو ما صنعني وهو من دمرني ، ليس أمامي إلا أن

أكون وطنياً ، أغضب وأشتم الوطن ، لكني أذوب وأنثني كلما سمعت أغنية تحكي عنه ، كلما رأيت الألوان الخضراء والحمراء وهي ترفرف عالية في السماء ، خفق قلبي معها ، عبر أجدادي مع هذا الوطن منذ مجيئهم من قلب نجد أربعة حروب ، وعشرات المصائب ، تشاركنا معه كل خوف سويّة ، خوف اليرابير أثناء الغوص ، خوف كساد اللؤلؤ ، خوف غرق البوم في عرض المحيط ، لا يمكنني أن أكون غير كويتي حتى في حياة أخرى ، لو ذهبت إلى مشارق الأرض ومغاربها لن أنسى أم الثلاث أسوار ، وطن النهار .

– هذا ليس أنت

– هذا أنا الحقيقي ، أنا الذي أخفيه بشعارات الصراع الطبقي ، والثورة ، وهذا الوهم الذي أزجي به وقتي كي أحفظ عقلي من الجنون ، انظر إلى أخي حامد ، فقد عقله بعد طرده من وظيفته ، أبناؤه عند أخوالهم وزوجته خلعت نفسها منه ، مررت ببيتنا السابق قبل أيام ، وقفت أمامه مثل الأبله ، بدا شكلي غريباً على منطقة اليرموك ، فركت عيني وقلت يالله ، هل يعقل أن هذا القصر الشامخ بغرفه الواسعة كان لنا؟ تراءى لي أبي وهو يهز يديه مع أغاني عوض دوخي ، ووالدتي وهي تسابق الزمن استعداداً للفطور الصباحي الأسبوعي مع أخواتها في المنزل ، كانوا يتجمعون ويباهون بعضهم ، بهاءٍ لم تسمع به في حياتك يا فارس ، يتبارون في اختيار وجهات السياحة

صيفاً ، هذه السنة مدينة كان ، السنة التي بعدها النمسا ، السنة التي تليها في أمريكا اللاتينية ، موائد طعام لم تر مثلها في حياتك ، أكوام من الفواكه كانت تصب في بيتنا كل أسبوع لأن أمي تحب الفراولة ، أما اليوم . .

أشاح بوجهه عني ، ثم التفت والدموع تصب من عينيه :

– قبل يومين استدنت لأشتري لأمي علبة فراولة صغيرة

– كلنا نستدين لنشتري أموراً ضرورية

– أنت ولدت هكذا ، أما أنا فلم أكن مستعداً

– لماذا بعتم البيت إذاً؟

– تجارة والدي كانت بالدين ، ولما جففوا منابع دخله ، وأوقفوا معاشه التقاعدي ، اضطر إلى بيعه وسداد الديون

– الحياة بلا جنسية مزرية

– لقد جربتها

قالها بمرارة .

– ولكن لماذا لا زلت تحب هؤلاء الذين سلبوا منك كل ما تملك؟

– أنا لا أحبهم ، أنا أحب وطني

– وطنك هو من فعل بك هذا

– الدولة هي من فعلت بي هذا ، أما الوطن فلا ذنب له

– ولكن هذا يعارض كل ما علمتنا إياه

– فارس ، اسمعني ، ما قيمة الإنسان بلا وطن؟

صرخت فيه :

– أين هو الوطن؟ قل لي بالله عليك ، إن صفتي بدون ، هكذا ، ب د و ن ، يعني أنني بدون وطن

– كلا ، إنها تعني أنك بدون دولة ، لكن وطنك هي هذه الأرض ، كل الجزيرة العربية هي وطننا ، نحن موجودون قبل أن تظهر هذه الدول ، نحن أحق بالأوطان منها .

اتكأ مرزوق على عصاه مجدداً ونهض عائداً نحو المطعم ، في الطريق مررنا بشباب تجمعوا بسياراتهم الفاخرة ، رمقهم بنظراته ، ثم تمتم وهو يصك أسنانه ، الكلاب ، أبناء الكلب .

×××

لم يتأخر مبارك في توزيع الأدوار على الجميع ، كان دوري في أول مهمة أن أرافق مهدي وخليفة لتركيب كاميرات مراقبة في مكتب وكالة سياحية ، حاولت إقناع مبارك بعدم إجادتي لأي دور في هذه المهمة ، لكنه طلب مني مراقبة مهدي فقط ، قال مبارك ، لا أثق بهذا الشاوي ، رعاة الأغنام الهمج ، راقبهم جيداً ، ربما سيفسدون كل شيء بسبب نزقهم ، دورك هو أن تضع حذاءك فوق رؤوسهم إذا ما فكروا بخداعنا .

كان لا وعي مبارك يحمل في بواطنه رواسب الماضي البعيد ، الترتيب الهرمي الذي تقوم عليه القبيلة أيام حروب الصحراء لا يزال ماثلاً في الأذهان ، تأتي طبقة الشيوخ أولاً ، ثم الفرسان ، ثم الرعيان ، ثم الصنّاع ثم العبيد والموالي وكانت

هناك قبائل ترعى الإبل ، وأخرى ترعى الغنم ، وكلٌ يحتقر الآخر ، أما رعاة البقر فينظر إليهم بعين شزرة لأنهم تخلوا عن الغزو والسلب والنهب ، ورضوا أن يعيشوا في بيوت طينية لا يحيدون عنها .

ركن مهدي سيارته في أقصى شارع الشهداء في منطقة الشرق ، أعمت الأضواء الصادرة من شاشة الإعلانات المعلقة على برج الحمراء أعيننا ، فيما كان الشارع خالياً من الناس ، سوى بضعة عمال خرجوا من أحد المطاعم بعد انتهاء نوبة عملهم ، أطفأ المحرك وفتح نوافذ السيارة ، وهبت معها نسائم بدايات الشتاء علينا ، ثم أخرج شطيرة طويلة من كيس مدسوس تحت مقعده ، قسّمها بهدوء لثلاثة أجزاء ووزعها علينا ، سألني وهو ينهشها بشراهة :

- هل والدك لا يزال يعمل؟

- نعم في الجيش

- لم يحيلوه للتقاعد؟

- لا ، أعطوه استثناءً ليكمل مدة عمله

- هذا جيد ، والدي كان في وزارة الداخلية ، أمن المطار ، لكنهم طردوا جميع العاملين لديهم بعد الغزو وأبقوا على الذين يعملون في الجيش فقط

صمت لسانه قليلاً ثم التفت نحو الكرسي الخلفي للسيارة :

- وأنت يا خليفة؟
- والدي كان مدنياً ، يبيع الغنم ويعمل كداداً .
- هذا مؤسف

هز مهدي رأسه ثم أكمل :

- البدون المدني كان يأكل التراب خصوصاً في التسعينيات ، ربما لم تلحق على هذه الأيام يا فارس ، كانوا يمنعوننا حتى من بيع الفواكه في الشارع .
- لقد سمعت عنها
- ماذا تعمل يا خليفة؟

وجّه مهدي سؤاله مرة أخرى له

- مدير شركة سياحة وسفريات ، الشركة التي سندخلها الآن

فتل مهدي شاربه وغمغم وهو يقول :

- منصبك مدير ، يبدو أنهم يعطونك الكثير
- إنهم لا يعطونني أي شيء ، العاملون تحتي يأخذون أكثر مني ، لكنني مهم بالنسبة لهم لأنني أبدو كويتياً ، أنت تعرف؟
- لا أعرف يا خليفة لا أعرف
- اللهجة واللباس وغيرها
- نحن كويتيون كاملون إلا من الجنسية

تدخلت معترضاً ، رد مهدي وهو يسخر :

- استمروا بالضحك على أنفسكم أيها السادة ، هيا فلننزل

ولتعلموا أن هذه المحادثة بيننا ليست لاكتساب الصداقة ، إنما لأزيل عنكم الخوف فأنا لست صديقكم ، تذكروا هذا ، خليفة ، تذكر هذا ، أنا لست صديقك ، حتى إذا ما أمسكوك متلبساً فلتنس أنك قابلت وجهي في يوم من الأيام ، مفهوم؟

– مفهوم

رد خليفة مذعوراً ، كنت أعرف مهدي حق المعرفة رغم أني لم أحادثه إلا مرات قليلة ، كان من النوع المتشكك من كل شيء ، يضع الحواجز بينه وبين الجميع كي لا يكتشف الآخرون روحه الهشة التي يخفيها بقناع القسوة ، وتساعده عليها الدمامة الموجودة في وجهه ، تقدمنا خطوات حتى وصلنا إلى العمارة المطلوبة ، كانت مبنىً صغيراً مكوناً من ثلاثة طوابق ، تحيط به الأبراج الشاهقة من كل مكان ، وطراز بنائه يشير إلى ستينيات القرن الماضي ، أُضفيت عليه بعض الأصباغ لتجديده ، وكانت واجهته مليئة بإعلانات لمكاتب محاماة تعود لمحامين مغمورين ، أو متوفين ، وقف خليفة خارج المبنى للمراقبة ، كانت يداه ترجفان بخوف ، أشعلت سيجارة ومددتها له ، ثم تسللت مع مهدي عبر الباب الرئيسي الذي كان مفتوحاً ، لمحت كاميرا مراقبة في أعلى المكان ، همست له عنها بخوف ، لكنه قال إنها لا تعمل ، صعدنا عبر السلالم بخفة لنصل إلى المكتب المطلوب ، أخرج مهدي عدته وفتح الباب في ثوانٍ ، أشعلت الإضاءة من المصباح اليدوي بيدي ،

فيما راح يركب الكاميرا ، كان قلبي يخفق بقوة ، ويكاد الخوف يشق صدري ، اهتزت يداي وهما تحملان المصباح ، صرخ ، لا تكن جباناً ، سألته محاولاً تشتيت خوفي ، كيف كنتم تسرقون السيارات؟ رفع رأسه والسلك لا يزال في فمه ، هل هذا وقت سؤال أيها الغبي؟ أكمل عمله وهو يشرح ، كنت أقود سيارتي وأبحث عن صاحب سيارة غالية الثمن لأتشاجر معه ، وعندما يركن على يمين الطريق محاولاً ضربي ، يخرج شريكي من الباب الآخر خلسةً ويقوم بركوب السيارة والهروب بها ، فيما أهرب أنا أيضاً بسيارتي وأتركه وحيداً في الشارع ، الأمر لا يتطلب أي عبقرية سوى أن تستغل غضب الآخرين في اللحظة المناسبة ، ابتسم لي ، ثم جمع معداته كافة بعد أن انتهى من تركيب الكاميرات ، ونظّف المكان من خلفه بدقة خوفاً من ترك آثار لأسلاك مقطوعة .

ركبنا السيارة على عجل ، وضحكنا نشوةً من رعب التجربة ، فيما كانت يد خليفة لا تزال تضطرب خوفاً ، قبض مهدي يده وشدّ عليها بقوة ، قرّب وجهه إلى إذنه وهمس ، انتهى كل شيء لا تخف ، في الطريق سألت خليفة :

- كيف ضمّك مبارك للعملية؟

- القصة طويلة

رد مهدي ، تجاهلته وأعدت السؤال بصيغة أخرى على خليفة :

- لا تبدو مجرماً

- إن فكرة العملية هي فكرتي ، وتخططيها جرى على يد أخي الذي يعيش في لندن مع مبارك

- ما رأيك بمبارك؟

- إنه مثل المهرج ، مضحك ومخيف .

- وسكّير

قالها مهدي وهو يضحك ، قلت :

- الأموال قليلة في المكاتب السياحية

- لا توجد أموال أصلاً ، كل المعاملات تتم عبر الدفع الالكتروني ، ما سنسرقه فعلاً هو الخزينة التي توجد داخل المكتب

- خزينة ماذا؟

- صاحب المؤسسة وشركاؤه يقومون بغسل الأموال ، وخزينة مكتب السياحة هي أحد الأماكن التي يخبؤون فيها أموالهم بشكل دوري لحين تحويلها إلى أموال شرعية .

- غسيل أموال!

تدخل مهدي بجواب أكثر حسماً :

- سنسرق أموال تجار مخدرات

- هؤلاء سيؤذوننا!

- فليذهبوا إلى الجحيم

صرخ خليفة ، ومضينا نشق طريقنا عائدين شمالاً نحو

الجهراء ، التفتُ نحو العاصمة التي تركناها خلفنا وأبراجها العاتية تشع بالأنوار ، وخطرت لي فكرة أنني بدأت أستمتع بكوني لصاً متسللاً ، نقض مهدي اتفاقه معنا بأن الكلام للضرورة فقط ، وأن صداقتنا أمر غير موجود وسأل خليفة :

– لماذا فكّرت بالسرقة؟

– سئمت كل شيء ، تخيّل بأنني مدير شركة سفريات ولم أركب طائرة في حياتي .

– نحن الثلاثة لم نركب

تدخلت قائلاً :

– استخرجت جوازاً من الجوازات المؤقتة التي يصرفونها لنا

– ولم لم تسافر أيها الغبي؟

جحظت عينا مهدي وهو يوجه لي السؤال ، بينما كان خليفة مصدوماً من مقدار الغباء الذي كنت عليه .

– كنت أظن أن الأمور ستعتدل

– تعتدل! ، مجنون أنت؟ متى ستعتدل؟ ولماذا لا تسافر الآن وفي هذه اللحظة ، أنا وخليفة مضطران للبقاء والمشاركة في العملية ، لأن المهرّب هو من سيخرجنا من المطار بجوازات كويتية ، أما أنت اخرج من بوابة المطار بصفة رسمية ، الآن يا فارس! وسأدفع تكاليف تذكرتك .

– هوّن عليك ، انتهى جوازي ولم يسمحوا لي بتجديده ، وضعوا قيداً أمنياً عليّ بسبب أن أخي سافر ولم يعد .

تساءل مهدي :

– لماذا يصر الإنسان على تعقيد الأمور؟ يصنع حدوداً وهمية ويحكر تنقله بأوراق لا قيمة لها ، ثم يشعل حروباً لا معنى لها استناداً لهذه الخطوط المكذوبة والأوراق التي كتبت بالحبر ، تخيّل أنه يحتم عليّ أن أقتل ابن عمي الذي يعيش في الجهة الأخرى من الجزيرة العربية ، لأن طرق تشكل الحروف في خانة جنسيته تختلف عن تشكيلة حروفي .

تدارك مهدي نفسه ، ومحى علامات الجد من على وجهه ، وعاد للمزاح مع خليفة ، مدير مكتب سفريات لم يركب طائرة في حياته ، هاه ، لم أستغرب حديث مهدي العميق ، ولم يكن أحد منا يحتاج إلى قراءة كتاب في الفلسفة السياسية ليكتشف جذور الأسى الذي يعيشه ، خلقت منّا الظروف فلاسفة يتمتعون بالميزة الأساسية التي يحتاجها كل فيلسوف ، التساؤل عن كل شيء .

صاحبي . .
ما الذي غيّرك . .؟
ما الذي خدّر الحلم في صحو عينيك؟
محمد الثبيتي

(١)

منذ أن مات أخي كرهت كل الاتصالات المفاجئة ، كان كل رقم غريب يُظهر نفسه على شاشة هاتفي يصيبني بالهلع ، ومع أول رنّة منه ، تمر أمامي ذكريات أحبابي الذين أخاف أن أفقدهم ، وتحضرني ابتسامة أبي التي لا تُرى إلا نادراً ، وجه فيصل وهو يشع إيماناً ، ورقّة أختي جوزا وهي تطمئن عليّ كل يوم ، ظل الهاتف يرن ، وظللت أحدّق به عالقاً في دائرة ذكرياتي ، توقف الرنين لوهلة ثم عاد مرة أخرى ، لم تكن الرنة الثانية أكثر إصراراً في الواقع ، لكنها كانت كذلك في عقلي ، رفعت السماعة ، وأتاني صوت أجش :

– هل تعرف أحداً باسم سعود ناصر؟

– إنه أخي

ساد الصمت عدة ثواني خلا أنفاساً متقطعة يصدرها صاحب الصوت ، قبل أن يعود ليقول :

– أجّر أخوك سرداباً مني منذ أربع سنوات لكنه تخلّف عن السداد في الأشهر الأخيرة

– عفواً من أنت؟

– أنا أبو خالد مدير مؤسسة الرحمة العقارية

انطلقت من صدري تنهيدة طويلة ، وكأن جبلاً ضخماً انزاح عنه وذهب ، خفت أن يكون الاتصال من الجهات الأمنية تستفسر فيه عن حقيقة موت أخي ، رغم أني كنت أعلم يقيناً أن سر موته لا يخفى عليها ، لكنه لم يكن ذلك ، وعدت مدير المؤسسة بالحضور فوراً ، وانطلقت إليه بسرعة ، لم تكن مؤسسة بالمعنى الحرفي بل كانت مكتباً قذراً تملؤه رائحة السجائر والغثيان ، يجلس المدير في منتصفه على كرسي جلدي ممزق خلف أكوام الورق ، حك أبو خالد بطنه قبل أن يهبّ واقفاً ليصافحني :

– أين أخوك؟ لقد خفت في البداية أن أؤجر مكاناً كبيراً مثل هذا لبدون لأنكم لا تدفعون ما عليكم من إيجارات ، لكنه أغراني بكلامه ووعوده

ثم رفع السماعة وزعق من خلف شاربه الكث ، قهوتان بلا سكر ، وكأسا ماء ، والتفت لي مرة أخرى ليقول :

– أيّاً كان المكان الذي يختبئ فيه أخوك عني ، اذهب إليه وقل له إنك مطلوب بمبلغ ألف ومئتي دينار نتيجة تخلفك عن سداد الإيجار لمدة ثلاثة أشهر

– يبدو أن هناك لبساً في الأسماء!

فتح المدير أدراجاً متعددة ، وشرع يبحث في الأوراق ، قبل أن يحصل على ملف أخضر اللون ، فتحه ليتأكد من محتوياته ثم ألقاه أمامي وقال :

– أليس هذا اسم أخيك ورقمه المدني وتوقيعه؟ وأليست هذه صورة بطاقته الأمنية؟

– نعم! كل هذا صحيح! ولكن أخي توفي منذ سنة ونصف

هرش أبو خالد بطنه ثم وضع يده على ذقنه وسأل بغضب :

– كيف تفسر لي عدم انقطاع الاستقطاع الشهري للإيجار من البنك إلا في الأشهر الثلاثة الأخيرة؟

– لأن البنك لم يكن يعلم بوفاته ربما

– ألم تقوموا بعمل حصر وراثة لمتلكاته بعد موته؟

– لم يكن يملك شهادة وفاة ، لقد مات خارج الكويت ، مع داعش

شددت على كل حرف في الكلمة الأخيرة ناطقاً إياها بحقد ، ارتعب المدير ما إن سمع ظروف موت سعود ، أكملت مستغلاً وقع الرعب في قلبه :

– لن تكون هناك شهادة وفاة ، ولن يكون هناك حصر وراثة ، حتى وإن رفعت ألف قضية فلن تستطيع نيل دينار واحد من شخص فجّر نفسه في سوريا! نصيحتي لك هي أن تنسى الأمر .

رد بسرعة وهو يتأتئ في الكلام :

– خذ المفتاح ونظّف محتويات السرداب ، لا أريد أن أرى

شيئاً فيه ، ولننس هذا الأمر ، ويذهب كل منا في طريقه

غادرت على عجل حتى قبل أن أشرب قهوتي ، حذّرني المدير قبل تجاوزي عتبة بابه ، لديك أسبوع واحد فقط ، وإلا فسأبلغ أمن الدولة .

(٢)

كانت الأيام لا تزال تمضي في خط سيرها المعتاد ، انكب أفراد الطاقم يراجعون الخطط مراراً وتكراراً خوفاً من أي زلة أو خلل ، بينما كنت أغور مع مريم في لجة الجنون ، لم تبق طاولة في مقاهي البلاد إلا وشهدت جلوسنا نضم الأيدي ساعةً ونشبكها ساعة أخرى ، وعيوننا تلهج بعبارات الغزل ، كانت تلمح في كل مرة ترددي وقت دفع الحساب ، فتبادر بإخراج النقود من محفظتها دون سؤال ، أو انتظار جواب لن يأتي .

ازدادت حدة جنوننا ، لم نأبه لنظرات الناس التي كانت ترمقنا باستنكار ، وطاشت بنا الضحكات المتصاعدة والغزل العلني ، وجدت نفسي أنزلق ببطء لمكان كنت أراه هاوية فجور وفسق ، أقنعت نفسي بأن لا أحد يعرفني هنا ، كيف لسكان تيماء الشعث الغُبر أن يمروا بهذه المطاعم الفاخرة ، غطيت عقلي بالوهم وقلبي بالحب ، فما عدت أرى أو أسمع .

في نهاية الأسبوع واعدتني مريم في بيتها ، كان أهلها قد رحلوا إلى الشاليه ، بينما سافرت الابنتان مع والدهما في عطلة قصيرة ، كانت تستخدم كل حواسّها وطبقاتها الصوتية لاستدرار العواطف والإقناع ، ولم أكن أملك أدنى قدرة على

قول لا لها ، ركنت سيارتي في الساحة المقابلة لبيتها ، وتسللت عبر الباب الخلفي ، فاجأتني بعناق حار وسط الممر المؤدي إلى بهو البيت ، طبعت قبلاتي الدافئة على رقبتها الطويلة ، أمسكت شعرها من الخلف ، ونظرت في عينيها طويلاً قبل أن تقودني إلى الداخل .

أخذتُ جولة في أجنحة البيت الواسع حتى أعياني التعب ، ودخلت إلى غرفة زجاجية زيّنتها التحف ، وتوسطتها لوحة زيتية لرجل في منتصف الأربعينيات من عمره يرتدي اللباس الوطني القديم وعلى رأسه عقال متين ، بدأت تحكي لي عنه ، كان جدها تاجر اللؤلؤ متوسط الثروة الذي قرر ابنه أن يؤسس مصرفاً عائلياً فور اكتشاف النفط لتصبح العائلة من كبار الملاك ،صورة أخرى لوالدها وهو يرتدي البشت ويصرخ في البرلمان ، كان وزيراً يقاتل في استجواب قُدّم له من البرلمانيين ، حتى أجبرته الحكومة على الاستقالة تجنباً للمواجهة ، حاولت أن أغيظها ، وسألتها ، هل كان سارقاً؟ ابتسمت ، والدي كان مصرفياً ، وهناك جملة مشهورة تقول ، أعط رجلاً سلاحاً وسيسرق مصرفاً ، وأعط رجلاً مصرفاً وسيسرق العالم .

كان الطقس قد أخذ بالتحسن ، صعدنا نحو سطح المنزل حيث بدا القمر مكتملاً وأكثر توهجاً مما كان عليه في بيتنا ، أو هكذا توهمت ، أحاطت ذراعي بيديها وطلبت مني قصيدة ، فقلت :

قبلها ما طاعت أقدامي طريق إلا عصاني \بعدها ما ظل حلم أخضر بصدري ما تهيّا

- بيت واحد؟

قلت لها إن هذا هو البيت الأخير من القصيدة الأولى التي ألقيتها عليها ، كان بالي شارداً ولم يكن هذا ليفت عليها ، طلبت مني مصارحتها ، أخبرتها عن سعود ، وعن سره الصغير الذي يخيفني ، شبّكت يدها بيدي ، ثم وضعتهما على صدري وقالت ، لا تخف ، سأذهب معك ، لكنك تخفي شيئاً آخر عني ، أقسمت كاذباً بأني لا أفعل .

صبيحة اليوم التالي اتجهنا سوية إلى مكان السرداب ، مشينا طويلاً عبر السيارة في الدائري السادس حتى وصلنا لمنطقة جليب الشيوخ ، تذكرت توجيهات أبي خالد الصارمة ، ثانِي انعطافة على اليمين ، إن دخلت الأولى فلن تخرج منها ولو بعد ألف سنة ، ولا تنظر في وجه أحد ، وتجنب اللباس الوطني ، والسيارات الفارهة أثناء دخولك ، من أين لحافٍ مثلك سيارة فارهة؟ المهم أن تتجنب اللباس الوطني لأن هؤلاء الوافدين القذرين سيأكلونك حياً إن علموا بأنك كويتي ، لقد دمروا البلد ، قهقهته البشعة كانت تدفعني للتفكير في قتله ، وإطعام جثته للكلاب ، شاربه ربما كان سيكفي لتنظيف مدينة كاملة ، الإقطاعي الملعون ، تمتمت بغضب بينما جلست مريم إلى جانبي بحبور يغطي وجهها مثل طفلة حصلت أخيراً على

رحلتها المدرسية ، لم تقم وزناً لمخاوفي ، من الذي سيخزن متفجرات في سرداب؟ قالت لي ، ربما ستكون مجموعة من الأشياء عديمة القيمة ، سنضيع الوقت بمرح هناك يا عزيزي .

حاولت تحاشي دهس العمال المزدحمين في الشارع ، كان بعضهم مرمياً على الأرصفة بانتظار الحافلات التي تقلهم نحو مكان شقائهم اليومي ، ربما هم مرتاحون بهذا العذاب ، فكّرت قليلاً وأنا أشاهد جيشاً من عمال النظافة بلباسهم الأصفر ، يتقاسمون تركة ما جمعوه من قمامة شوارع الأمس ، وقفنا أمام البيت الموصوف الذي كان بإمكان المرء أن يطلق عليه كل وصف إلا مسمى بيت ، ارتجلت من السيارة فسقطت في وحل طيني ، صرخت مريم ، لا يمكنني النزول هنا ، المكان مليء بالماء ، احترت في طريقة لإيصالها ، لعنت نظرات العمال العزاب الخبيثة ، وشمّرت بنطالي حتى منتصف الساق ، ثم حملتها بيدي واضعاً إياها أمام عتبة الباب الذي دلفنا منه نحو السرداب وفق توجيهات أبي خالد ، اللعنة عليك أيها السمين ، ألم يجدر بك أن تكلف أحداً بتنظيف المكان بدلاً مني ، أصدر باب القبو صريراً مزعجاً ثم انفتح ، هتفتُ مع مريم بصوت متعجب واحد ، «أولّه»!

كان المكان يشبه فردوساً مفقوداً خلف ركام حطام دنيوي ، بهو كبير تتوسطه ثلاث أرائك جلدية مصفوفة على شكل حلقة نصف دائرية ، وطاولات خشبية فاخرة ، وعلى اليسار

كانت هناك لوحات مبعثرة ، وعلب أصباغ وألوان ، بينما امتدت المكتبة الضخمة من شرق السرداب حتى غربه ، تراجعت مريم بفعل الصدمة وهي تقول ، أضعنا المكان فيما يبدو ، قلت لها وأنا أمسح رذاذ الغبار من على الأثاث الخشبي ، إنها تعود لأخي ، أعرف هذه اللوحات جيداً ، تقدمت مريم نحو الصور المعلّقة في أرجاء المكان ، سألتني وهي تشير لإحداها ، هذ جيفارا ، وذاك بن لادن ، فمن الآخرون؟ شرحت لها ، لينين ، ماوتسي تونغ ، تروتسكي ، مايكل كولينز ، غسان كنفاني ، وهذا الأخير أعرفه لكني نسيت اسمه ، مقاتل فلسطيني ما ، اقتربت قليلاً من صورته ، قرأت الاسم الموضوع في ذيلها ، نعم ، جورج حبش ، وسط هذه الصور انتصبت لوحة حمراء في منتصفها مطرقة ومنجل ، كان ثورياً ، هتفت مريم .

شرعت أبحث في أدراج المكتب الموجود في الزاوية عن سر هذا المكان ، لم يكن سعود ليتحمل تكلفة إيجار سرداب بهذا الحجم ، فكيف بتحمل تكلفة أثاثه الفخم؟ والمكتبة الضخمة التي تساوي آلاف الدنانير ، لكن المكتب لم يحمل سوى أوراق مبعثرة ، وقصاصات مترجمة لنصوص غير عربية ، محاولات شعرية بسيطة ، وقدّاحات ملونة ، المزيد من القداحات ، خلعت الأدرج كلها من مكانها ، ورميتها على الأرض ، فجأة لاح شق صغير من أحدها ، تتبعت الشق بأصبعي ، وضغطت على موضع فتح المخبأ السري ، برز لي دفتر مذكرات محاط بغلاف

جلدي بني اللون ، أخفيته بسرعة ، واتجهت صوب مريم التي كانت تتأمل اللوحات المسنودة على الأرض ، ثم تساءلت ، أخوك يجيد الرسم؟ أجبتها بزهو ، كان يجيد كل شيء ، النسخةُ الأفضل مني .

رحت أطوف بالمكان وأفكر ، الأثاث يمكن بيعه بسرعة ، والمكتبة كذلك ، أما اللوحات فسأخبئها عند أختي ، ستدمر والدي حزناً إذا رآها ، لكن المشكلة في الكتب ، لا يمكن أن ألقيها في أي مكان ولن تباع إلا بعد مدة ، ولا أحد يرغب بمكتبة تحتوي مثل هذه الكتب التي تشك في كل شيء ، الإله ، والإنسان ، والدولة ، حملت مريم مجلةً بيدها وقالت :

– كنتُ في مكتبة أخيك مدةً طويلة

– أنتِ! في مكتبة أخي ، هل قمتِ بثورة ما؟ لأن المكتبة لا تحمل سوى كتب الثوريين

سألتها ساخراً فردت بجديّة غير معهودة :

– ورواد الأعمال

ناولتني المجلة ففتحتها على الصفحة التي طوتها كعلامة مميزة ، إنها أنتِ ، صوتٌ منفعلاً ، حوت المجلة صورة لمريم ، وسيرة ذاتية مختصرة ، خريجة كلية العلوم الإدارية بتخصص المحاسبة ، تعمل في هيئة الاستثمار ، وبدأت طريقها في ريادة الأعمال بافتتاح مطعم إيطالي ، ماذا عن المطعم؟ سألتها ، تزوجت وبعته على ابنة عمي ، أجابت بحسرة .

جلسنا على الأريكة أسيريّ سطوة موقف غير متوقع ، عادت مريم لمشاغباتها :

- أخوك كان كائناً رقيقاً

- تريدين أن تسألي كيف صار داعشياً؟

- هل تسمح لي أن أبدي رأيي نحوه؟

- الجميع أبدى رأيه نحوه ، فلم لا تبديه أنتِ؟

غمزتني وقالت :

- أنا لست الجميع

أحطت خصرها بذراعيّ :

- طبعاً أنت لست الجميع حبيبتي

- أخوك كان خائفاً من أن يلاقي واقعه هنا ، فاتجه إلى هناك

تحسست الدفتر المخبأ تحت ملابسي :

- سعود لا يخاف

ثم أكملتُ :

- لو كان يخاف ، ما فجّر نفسه

أطرقت مريم تفكر ملياً وهي تحاول البحث عن أساس صغير تُسند رأيها إليه :

- قلت لك إنه يخاف منه هنا ، لكنه لا يخاف منه خارج البلاد ، ربما خوفه كان مرتبطاً بالمجتمع .

- أنتِ لا تفقهين شيئاً في واقعي يا حبيبتي! مجتمعي

الذي عشت فيه مسكين بلا أنياب لا يقدر على فعل الشيء ، المشكلة في أننا بدون ، ماذا تريدين من الإنسان أن يفعل إذا كانت كل الأبواب موصدة في وجهه؟

– أنت تستطيع أن تكون ناجحاً ، عندك كل الإمكانيات

– نحن لا نستطيع فعل أي شيء يا مريم ، نولد كي ننتظر الموت

– كلنا كذلك ، لكننا نفعل أشياء أثناء الانتظار

– أيادينا مكبلة ساعة الانتظار

مضيت نحو إحدى اللوحات ركلتها بغضب :

– وأنتم من يكبلها .

خيّم الوجوم على وجهها ، ولم تنطق حرفاً ، نظرتْ إلى ساعتها الذهبية ، ثم وضعت يديها في نحرها كمن يريد تخفيف التوتر ، وطلبت مني إعادتها إلى بيتها ، لم أناقشها ، خرجنا من الباب ، وغاصت رجلاها في الطين دون أن تهتم ، ومضينا في مسيرة صمت شاقة .

في المساء طلبت من مرزوق مرافقتي للمكان ، وفور وصولنا صرخ ، «أوله!» ، دُهش من حجم المكتبة ، وشعت عيناه ببريق لامع وهو يتلمس أغلفة بعض الكتب ، هل أنت متأكد من أنها تعود لسعود؟ إن هذا حلم جميل ، لا أريد لأحد أن يوقظني منه ، أو فلتوقظوني حتى لا أتوهم أكثر ويخيب ظني فيما بعد ، أخوك! أخوك يا فارس! كان يعيش في ربيع مزهر ، هتف وهو يتفحص

محتويات المكتبة ، إنها كتب نادرة ، تساوي آلاف الدنانير ، طبعات أولى من كل شيء ، كتب دار التقدم ، من أين جلبها الملعون؟ لقد نفدت من السوق ، الأعمال الكاملة لدوستويفكسي ، إنك بهيمة غبية ، فيم تحتاج إلى هذه الكتب يا فارس؟ ، سأشتريها منك والدفع يكون بعد استلام نصيبي ، أنت لا تتصور كم ستكون هذه المكتبة مفيدة لمشروعي ، قل نعم ، أرجوك قل نعم ، أو لا تقل ، سآخذها رغم أنفك ، ولكن ألم تكن لسعود مكتبة في ديوانيتكم؟ ومن أين جلب المال اللازم لها؟ ، الترجمات التي كان يقوم بها لم تكن تكفيه ليأكل أصلاً ، ربما كان لصاً للكتب ، يجب أن نكتب فلماً عنه ، لص الكتب في الجهراء ، تخيّل سعود في الليل وهو يتسلل إلى المكتبات ويضع الكتب في حقيبة سوداء ، ويرتدي ربطة فوق رأسه .

فجأة قطع مرزوق ثرثرته الطويلة ، رمى الكتب من على حضنه ، واتجه نحو اللوحة الصغيرة المعلقة على يمين الباب ، وضع يده على رأسه وصرخ وهو يضحك بجنون ، ويدور حول نفسه في حلقة دائرية ، الملعون ، الملعون ، ركضت إليه مسرعاً ، أشار بأصبعه نحو اللافتة ، التي كُتب عليها باللغة الإنجليزية ، Oasis وتحتها بخط أنيق كُتبت عبارة «الواحة» ، قال مرزوق ، كنت أسأله كل مرة ، أين تجلس ومع من؟ ويجيبني بتحفظ واستهزاء ، مع رفاق لي في الواحة ، كنت أظنه يقصد منطقة الكوريات ، لكن كانت هذه الواحة ، هل تعرف المعنى الوحيد

المقصود بالواحة؟ هذه المهزلة الإنسانية التي نعيش فيها هي الصحراء ، وهذه المكتبة العذبة هي الواحة التي تجدها في منتصفها ، الكتاب هو الواحة ، هو الثورة ، الكتاب أعظم قصة انتصار في التاريخ على الطغيان يا فارس ، لكن الواحة لا بد لها أن تتحول إلى مملكة ، ثم تقدم بخطوات متأنية نحو المكتبة ، ووقف في منتصفها وهو يتأمل فيها ، وقال «على هذه الصخرة سأبني مملكتي ، ونيران الجحيم لن تقوى عليها» .

ثم أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها جالساً على الأرضية ومقابلاً للمكتبة ، وهو يتأمل عناوين الكتب من جديد ، كان يسحب الأنفاس من السيجارة بقوة ، ويحك ذقنه بإبهامه متوحداً مع الكتاب ، غامراً نفسه فيه ، سرح طويلاً أمام مشهد المكتبة ، وكنت أعرف بماذا يفكر ، طريقة إمساكه للسيجارة بيده اليسرى ، وحك ذقنه باليد اليمنى ، تعني أنه يفكر بالأشياء السعيدة ، وقد كان في هذه اللحظة يرى نفسه في لندن مع الكتب ، يجلس في مكان مغلق ، و يكتب نظريته السياسية التالية التي ستخلده فيما بعد ، يحلم بأن يتذكره الناس بعد سنين طويلة مع أساطين الشيوعية ، ماركس ولينين وتروتسكي وربما فيديل كاسترو الذي كان مفتوناً بطريقة لباسه وتصفيفة شعره وإعفاء لحيته ، تهاوت عينه عن المكتبة إلى الأرض ، وبدا أنه عاد مرة أخرى إلى الواقع ، أخفى الحرب الدائرة في عقله بابتسامته الطفولية في وجهي .

وضبت بمساعدة كسولة منه محتويات السرداب ، واتصلت بتاجر الأثاث المستعمل الذي استغل ببصيرته الخبيثة حاجتي للمال ، فاشترى الأرائك ، والطاولات ، والمكتب ، والمكتبة ، بسعر بخس وحملها رفقة عماله على الفور ، ليس لدينا وقت ، قلت لمرزوق ، وهو ينهمك في قراءة الأعمال الكاملة للينين ، ستحصل على الكتب ولكن يجب أن نفرّغ السرداب ، رد عليّ ، ألم تقل أنّ لديك أسبوعاً كاملاً؟ تخلصتَ من كل الأمور الثقيلة في المكان ، خذ اللوحات ونظّف المرسم ، وأبقِ الكتب ، سأنام مدة أسبوع هنا ، لأن ترتيبها يستغرق وقتاً ، لا يجوز أن نرتب الكتب عشوائياً ، الروايات في صندوق ، والكتب الفلسفية في صندوق ، والكتب الدينية في صندوق ، سألته ، ألست مهتماً باللوحات؟ التفت نحوي ، ماذا ستفيد اللوحات في مشروعي الثوري؟ فارس ، الفن للمخنثين والمترفين ، ثم وضع رأسه برأسي حتى سمعت أنفاسه المتقطعة وسألني ، هل تعتقد بأني مخنث؟

(٣)

في الليل آويت إلى فراشي المبسوط وسط الديوانية ، بعد أن أطفأت أنوار المنزل كلها ، أشعلت شمعة صغيرة جلبتها من صندوق الشاي والقهوة في الزاوية ، وتلمست المذكرات الجلدية قليلاً قبل أن أفتحها ، انبعث منها نسيم هادئ ، وأعادت رائحة الورق الممزوجة بعطر سعود سنين عمري كلها ، أحسست بأني أضع رجلي على حافة العالم أترقب السقوط ، وخفق قلبي قبل أن أفتح الصفحة الأولى ، لا شيء عليها سوى رسومات مبهمة لرؤوس بلا أعين ، الصفحة التالي كانت فارغة إلا من فقرة واحدة في الهامش كُتب فيها بخط صغير جداً :

«هذه ليست مذكرات شخصية ، بل هي ذكريات أريد تدوينها لأعود لها لاحقاً في عمر الستين ، وأنا أجلس بين أحفادي في حديقة بيتي الكبير ، رغم أنه يزاولني شعور غريب بأني سأكون عقيماً ولن أنجب أي أبناء ، فيا سعود المستقبل إذا قرأت هذه الكلمات فاعلم أنك نجوت من فخاخ الدنيا فهنيئاً لك ، كن شاكراً وابتسم في وجه زوجتك ، ولا تعبس في وجه أي أحد كان» .

قلّبت الصفحة في الدفتر الذي يبست أوراقه بفعل بلل

قديم ، كان سعود يعنون كل يوم من أيام الذكريات في صفحة مخصصة ، بدأت مباشرة :

– ––––––––––––––

اليوم الأول:

الجو بارد جداً ، نحن الآن في منتصف موسم المربعانية ، ذهبت إلى البر رفقة أخويّ ومرزوق ودخلت معه في نقاش حاد ، بينما انشغل فارس وفيصل بالشواء ، تمحور النقاش الذي تحول إلى جدال ، حول الفن ، وهل يجب أن يكون هادفاً؟ أيدت وجهة النظر القائلة بأننا يجب أن نرسم لأجل الرسم ، ونغني لأجل الغناء ونكتب لأجل الكتابة ، لكن مرزوق كان عنيداً ، ظل يتكلم لدقائق طويلة عن وجوب أن يكون الفن خادماً للشعب وراعياً له ، مرزوق ثرثار جميل ، وله فضل عليّ في تثقيفي وتعليمي ، لكنني لا أحب أن أعترف له بهذا ، بعد أن تعشينا وشربنا الشاي المغلي على الفحم ، تأملنا الجهراء من فوق الجبل الصغير الذي نجلس عليه ، يسمى في اللهجة البدوية ضلعاً ، بدت المدينة بهيّة وجميلة ، وأنا أحب الوقوف على الأطلال ، والغناء عليها ، ارتفع صوت فيصل وهو يشدو بقصيدة شعبية مطلعها :

إن عشت يا راسي كسيتك عمامة

وإن مت يا راسي فدتك العمايم

الشعر الشعبي الذي ربانا عليه والدي فيه روح متقدة

ووثابة ، لا زال مرزوق يحاول تعلمه مني ، لهجته الحضرية لا تستطيع تقويم الكلمات البدوية .

اليوم الثاني:

يوم ممل ورتيب في العمل ، ترجمت مقالة تخص التطور الاقتصادي في المنطقة ، كانت بعض الألفاظ صعبة علي ، ونبهني رئيس القسم بأنني لا أحسن ربط الكلمات ، لا أعرف إذا ما كان هذا صحيحاً ، لكني لا آبه برأيه ، قبل قد يومين أخبرني بأنني أنتقي كلمات ذكية وجذابة!

اليوم الثالث:

يراودني إحساس شديد بأنني مجرد نكرة ، درست خمس سنوات في الجامعة لأحصل على وظيفة مكتبية لا تمت لتخصصي بصلة ، وبراتب رخيص ، لقد خدعوني! سأذهب للواحة لأروّح عن نفسي .

– ––––––––––––

قلّبت المذكرات بسرعة أحاول البحث عن الأشياء المهمة ، كانت الصفحات الأولى مزيجاً من الحديث عن يوميات العمل الذي كان يصفه بالممل ، والجلوس في السرداب رفقة صديقين مجهولين اسمهما عامر وأحمد ، كان الاتفاق أن يحجز سعود سرداباً واسعاً وفخماً باسمه ، يجلس فيه الثلاثة للقراءة ،

والراحة ، والشرب ، وجلب النساء ، ويتولى الصديقان اللذان بدا أنهما يعملان في جهة مهمة دفع الإيجار ، ويكون حساب سعود البنكي واجهة لهما للدفع ، حتى لا تكتشف زوجتاهما ما يفعلانه في أوقات الفراغ ، صفقة رابحة ، هكذا وصفها سعود في أحد يومياته .

توقفت أثناء تقليبي فجأة عند اليوم السابع والأربعين ، كانت الصفحة على غير العادة مكتوبة بالحبر الأزرق ، ومختلفة عن بقية الصفحات التي كتبت بالحبر الأسود ، وبخط غير مرتب ، أسطر كثيرة تم مسحها أو التعديل عليها ، وعلامة ((x كاملة كانت موسومة على الصفحة بأكملها .

_ __________

«اليوم ، دخلت شارع البلاجات بالخطأ ، وعلقت في زحمة مسيرة اليوم الوطني ، لا أشعر بالانتماء ، وأفتخر بأنني لا أشعر بهذا ولا أهتم به ، الوطن هو أرض جرداء أعيش عليها وأموت عليها فقط ، أشعر بالحنق كلما رأيت علم البلاد يرفرف ، لا أعلم سره ، لكن قلبي ينقبض كلما سمعت أغنية وطنية ، وأنا فخور بهذا أيضاً ، أحاول أن أقاوم غضبة قلمي الآن لكنني لا أستطيع» .

بعدها بأسطر قليلة كتب :

«فهذا الوطن الممتد من البحر إلى البحر ، سجون متلاصقة ، سجان يمسك سجان»

اليوم الثامن والأربعون:

الاكتئاب يسيطر عليّ ، تغيبت عن العمل وأخبرتهم بأنني مستقيل عبر رسالة نصية ، اتصل بي المدير وحاول أن يثنيني ، أخبرته بأني غير مهتم ، طلبت مني السكرتيرة تحديد موعد لأخذ أغراضي ، فقلت لها ، ارميهم من النافذة ، أمضي الآن اليوم في الواحة ، قرأت ثم شربت قليلاً من الخمرة التي جلبها عامر ، وأستعد للرسم .

اليوم الستون:

لا زلت أجلس بالواحة ، اضطررت لتدخين نوع أقل جودة من السجائر ، لأن أموالي تكاد تنفد ، انتهيت من رسم لوحة تصور أبراج الكويت وهي تذوب ، اتهمت نفسي بأني أقلد سلفادور دالي فمزقتها ، جلب أحمد إلى الواحة صديقته سوسن أو سيرين ، لا أذكر اسمها .

اليوم الثامن والستون:

توقفت عن القراءة منذ عشرين يوماً ، أنهمك الآن في الرسم على وقع أغنية «إسحاق» لسعد الفهد ، هذه الأغنية تذكرني بصديق قديم اسمه مبارك ، وقصة حبه الفاشلة والغبية ، كلما مررت على منزل سعد الفهد القديم في منطقتنا ، تذكرت غربته وغربة مبارك وغربتي ، البدون شعب الله المغترب ، جملة أرددها دوماً على مسامع أبي وإخوتي .

اليوم التاسع والستون:

نحن البدون مصابون بلعنة أبدية ، مثل بني إسرائيل ، الفرق أنهم استحقوا هذه اللعنة لأنهم تبعوا السامري وعبدوا العجل ، لكن ماذا فعلنا نحن؟ ما الذنب الذي اقترفناه لنصاب بكل هذا؟ تاه بنو إسرائيل أربعين عاماً بينما نحن لا زلنا في التيه الوطني منذ أكثر من ستين عاماً غير أنه لا نبي في الأفق يلوح لنا ، ويضرب بعصاه البحر .

اليوم التسعون:

أفكر في حرق المذكرات وتمزيقها ، تأملت ما كتبته في آخر عشرة أيام ، كان هراءً لا يُحتمل ، قرأت خبراً مفاده ان انتحارياً من داعش فجّر نفسه وسط حفل أطفال ، لماذا يخلق الله هؤلاء البرابرة؟

اليوم السادس والتسعون:

لا جديد على الساحة ، لا زلت عاطلاً عن العمل باختياري ، وفرصة توظيفي مهندساً لا تزال معدومة ، أشعر بأن هذه المذكرات ستُقرأ على نحو واسع بعد موتي ، لا أعلم لماذا؟

اليوم المئة:

وبخني والدي على الغداء بسبب طول مكوثي خارج

البيت ، فارس أخي يريد الخروج من كلية إدارة الأعمال التي أدخلناه فيها ، لأن مستواها متدنٍ ، وأسعار رسومها رخيصة ، شعرت بالذنب بعض الشيء لأن والدي صرف كل مدخراته واستدان من أجل تدريسي الهندسة ، وأنا مشغول بشرب الخمر ، والرسم في سردابي ، لكن فارس ذو شخصية مترددة ، يخاف من اتخاذ الخطوات الشجاعة ، سيظل طوال حياته هكذا ، جباناً وعالقاً في دائرته الصغيرة ، رغم أنه يحاول محاكاتي وقراءة الكتب التي أقرؤها .

اليوم المئة والعشرون:

بدأت أكره هذه المكتبة ، إنها تعيق مجرى الحياة الاعتيادي .

اليوم المئة والثلاثون:

قضيت غالب الوقت فاقد الوعي ، عامر وأحمد مشغولان مع أسرتيهما ، جاءت سوسن صديقة أحمد ، وقضت معي وقتاً ممتعاً ، ثم في لحظة غضب ، ضربتها وطردتها .

اليوم المئة والأربعون:

وقفت على إشارة مرورية طويلة اليوم ، ولمحت مسجداً على يميني ، أطفأت محرك السيارة تاركاً إياها في منتصف الطريق ،

وترجلت منها نحو المسجد ، اغتسلت بملابسي ودخلت إلى المحراب ، مبللاً وبارداً ، صليت ركعتين لله ، ثم خرجت بهدوء ، هذه أول مرة أسجد فيها منذ سنة كاملة!

اليوم المئة والثامن والأربعون:

أرسل الله لي ملاكاً في المنام يقول لي اقتل نفسك يا سعود .

اليوم المئة والخامس والخمسون :

لا زلت أقلّب فكرة الموت في خاطري ، أقسم أنني آخذها على محمل الجدية .

اليوم المئة والسادس والخمسون:

توصلت لقناعة تامة ، يجب أن أموت ، فهذه الحياة لا تستحق العيش فيها ، لقد فشلت في صنع نفسي ، وفرصتي الوحيدة في النجاح الآن ، هي النجاح في الموت ، ولكن بطريقة لا يقال عني فيها بأني جبان ، لن أموت على معلقاً على حبل ، أو مقطعاً شراييني في مغطس ، لقد حكم عليّ القدر ، وآن أوان التنفيذ ، سألقى حتفي مثلما تلقى الأساطير حتوفها ، وهي تتجه نحو الشمس السرمدية ، سأموت مثلك يا سقراط متجرعاً سم القرون الحديثة .

اليوم المئة والسابع والخمسون:

عرفت أين أجد ضالتي في الموت ، سأذهب إليه غداً .

اليوم المئة والثامن والخمسون:

اخترقت بسيارتي التي قاومت كل الظروف كثبان السالمي الجرداء ، كانت أرضاً مقفرة خالية من كل شيء ، والحر يقتل كل حي يمشي على سطحها سوى هؤلاء البائسين العالقين في العشش المصنوعة من الخشب وبقايا الحديد الصدِئ ، اقتربت أكثر ، ولاح لي حشد من الوجوه التي أعياها الزمن ، وهو ينظر إليّ بتعجب ، وقف الأب طويل القامة بملابسه الرثة في الخارج ، يرقب الضيف المفاجئ ، فيما كان يمسح بيده على رأس ابنته الصغيرة الأشعث ، نزلت من السيارة رافعاً يدي ، جئتك بالسلام يا أبا نصار ، رمقني بنظرة متشككة ، ثم اقترب مني وصافحني بيده اليمنى ، فيما كانت يده اليسرى تجوب في أجزاء جسدي ، وعيناه الحادتان كانتا مصوبتان نحو عيني ، بعد أن انتهى من تفتيشي دعاني للجلوس والضيافة ، صرخ بصوت مزلزل ، القهوة ، جاء ابن صغير له بدلة القهوة فوراً ، سلم علي ، ثم صب لي فنجاناً ، لماذا أحكي هذه القصة؟ تبدو مملة علاوة على أنني سأحرق هذه الكراسة ، ربما لأنني أريد أن أختبر مهارتي السردية ، حشد الكلمات المتراصة التي أجمعها وأنسقها ، لأنسج قطعة من هذا الحديث الخاوي من كل

معنى ، سألني أبو نصار ، من أنت وماذا تريد؟ أجبته بلا مواربة بأنني أريد الجهاد ، سألني ، تريد نصرة الدين وإقامة الخلافة؟ أجبته بأنني أريد الموت فحسب .

شد لحيته الملبدة ، ثم رفع شفته السفلى ، ومسح بها شاربه مرات ، وقال ، أنت بدون؟ أجبته ، وأنت كذلك ، رد بغضب ، هذا ليس سؤالاً بل هو تقرير ، إني أعرف بأنك بدون ، عشرات الشباب الذين جاؤوا إليّ من قبلك ، كانوا مثلك بالضبط ، بدونٌ يائسون من الحياة ، ويريدون مغامرة جديدة ، الخلافة تريد جنوداً منضبطين ، يجتهدون في الدنيا ، ويعملون من أجل الآخرة ، كتاب يهدي وسيف ينصر ، أما أنت وأمثالك فإن الله في غنى عنكم ، لو كان لي من الأمر شيء ، ما أرسلت واحداً منكم لينال شرف الشهادة ، لكن الأوامر تأتي بالحاجة إليكم في العمليات الاستشهادية ، سألته إذا ما كان سيعطيني الموافقة ، أجابني بالإيجاب بشرط واحد ، أن أبات عنده الليلة .

أكتب هذه الفقرة الآن وأنا على فراشي الصغير ، وسط الصحراء حرفياً ، لا شيء يعكر سكون الليل سوى صوت بعض الكلاب البعيدة وهي تنبح ، تسامرت مع أبي نصار ، وتناولنا العشاء على ضوء السراج ، حدّثني عن قصته ، تمنيت لو أنني لم أقرر الموت حتى أُخرج فلماً سينمائياً عنه ، قرر قبل خمس سنوات أن يترك الجهراء ويسكن صحراء السالمي ليعلم أولاده خشونة العيش ، استنكرت عليه هذه الفعلة لأن المدارس

ستصبح بعيدة عن أبنائه ، رد باستهزاء ، إن هذه المدارس تعلم الأطفال المناهج الكافرة ولا يمكن لأبنائه أن يدرسوا فيها ، لم أضيع وقتي في جدال رجل مجنون وسط بيداء لا يوجد بها إلا هو ، وعائلته المسكينة التي جرّها إلى هذا الشظف في العيش ، أُعجب بي بعد أن حكيت له عن نفسي ، وطلب مني أن أعمل ثلاثة أشهر في أرض الخلافة في مجالي الهندسي ، قال لي بحماس عارم إن الخلافة بحاجة إلى المتعلمين مثلك ، رددت عليه بحسم ، لماذا لا ترسل أبنائك للمدارس حتى تستفيد منهم الخلافة؟ صمت ولم يجب ، كان يختلس النظرات إلى هاتفه النقال كلما ساد صمت قصير ، قال لي إنه يتابع سير المعارك والغزوات في مدينة يشارك فيها ولده المكنى ذباح الجهراوي ، يسميها المرتدون الوطنيون عين العرب ، والمرتدون الأكراد كوباني ، ونحن أهل الخلافة والحق ، نسميها عين الإسلام .

نظر إليّ بحدة ثم قال ، إنه يشعر أن بداخلي سؤالاً ، قلت له لماذا تركت ابنك ذا الأعوام الستة عشر يذهب ولم تذهب أنت معه؟ رد بجواب جاهز ، الأمة بحاجة لي هنا ، ثم سألته لماذا وثقت بي وحدثتني عن نفسك؟ أجاب وهو يكوّن قبضة بيده ويضربها في الهواء ، رأيت طلب الموت في عينيك فور نزولك من السيارة ، رجال المباحث يخشون الموت ، لكنك لم تكن تخشاه .

لا أعلم إذا كان يجدر بي أن أضع هذه الفقرة في ذكريات اليوم التالي ، لكن قلمي خطها برشاقة في ذكريات اليوم السابق ، ربما لأنني مصاب بالذهول هذه الساعة .

اليوم المئة والتاسع والخمسون:

حصلت على كتاب ممهور بتوقيع أبي نصار ، إلى أبي عبدالبر الكويتي يخوّلني الانضمام لتنظيم الدولة الإسلامية ، والمقاتلة في صفه وكنّيت باسم أبي محجن الكويتي ، نسبة إلى الصحابي عمرو بن حبيب الثقفي الذي شرب الخمر ، ثم تاب وأبلى بلاءً في معركة القادسية .

اليوم المئة والستون:

جلست مع أبي ، وأخويّ ، وطلبت من أختي زيارتنا ، واستمتعنا بالحديث ، أعطيت فارس محاضرة حازمة في ترك التردد ، لكنني أعلم بأنه جبان يحب أن يمشي جانب الحائط ، وزرت مرزوق في المقهى ، ولا زلت أفكر في صديقي مبارك ، أكتب الآن هذه الكلمات وأنا أستمع لأغنية «إسحاق» تكريماً له .

اليوم المئة والواحد والستون:

رحلتي نحو تركيا ستكون بعد يومين ، صنعت مخبأً داخل

مكتبي لأضع فيه كراسة المذكرات ، وقررت ألا أحرقها لتبقى شاهدة على اللا شيء .

اليوم المئة والاثنان والستون:

أيها الموت أنت لا تخيفني
– خربشات مبهمة ، ثم كتب : –
لن أكتب وصيتي ، لأني سأكون خالداً

اليوم المئة والثلاثة والستون:

«المجد للشيطان ، معبود الرياح
من قال لا في وجه من قالوا نعم
من علّم الإنسان تمزيق العدم
من قال لا ، فلم يمت
وظلّ روحاً أبديّة الألم»
– – – –

أغلقت المذكرات على وقع أذان الفجر الأول ، وتسلل الرعب إلى قلبي ، بلعت ريقي ، وتنفست بصعوبة ، إنني الآن أمسك دفتر رجل تحزّم بالديناميت ، وحمل بندقيته وقاتل فيها حتى فرغت ذخيرته ، ثم فجّر نفسه وسط جمع آخر من المقاتلين ، كلهم كان يقاتل تحت راية واحدة يوماً من الأيام ،

لكن أحدهم رأى الطرف الآخر غير جدير بالحياة ، فاختار إزهاق روحه ، حاولت تقبل فكرة أن سعود لم يمت لأجل فكرة سامية ، بل لأجل الموت فحسب ، فلم أستطع ، تسلل الرعب أكثر إلى روحي ، نهضت من الفراش نحو علبة سجائري علّي أفرّ من فكرة أني سأصبح يوماً مثل سعود ، جسدٌ يمشي ويطلب الموت دون أي غاية ، لن أسمح لليأس أن ينتصر عليّ ، سأقتل التردد الذي يعيرونني به .

لم أخبر أحداً بأمر المذكرات ، وظل طنين الموت يدوي في رأسي كل يوم ، ويحوم حولي كالنسر منتظراً سقوطي في اليأس ، وظللت أقاومه باللوذ إلى حضن مريم ، مزقنا في مواعيدنا الغرامية كل الخطوط الحمراء ، ركلنا باب العيب ، وكسرنا بيت الحرام ، غصت فيها حتى تنسيني همومي ، وغاصت هيّ فيّ حتى تنسى فكرة عدم وجود هم لديها ، كانت تفرّ إليّ كي تغامر وكنت أفرّ من مغامرة الحياة إليها ، فرّاران التقيا في منتصف سكّة مظلمة وقررا الانتظار معاً مدعيان أن القطار توقف عن المرور في هذا الطريق ، لكن أصوات الحب التي كانت تصدر منهما أصمّتهما عن سماع صوت القطار الآتي بسرعة .

اكتشف مرزوق بعد جرده للمكتبة أن من بينها مخطوطات ثمينة ، قرر أن يعطيها لوالدي ليبيعها ويحصل على أموالها ، دعاني لمنزله ، وكانت المرة الأولى التي أزور فيها غرفته ، عبرت

ركاماً من علب القهوة الفارغة ، والسجائر المرمية على الأرض ، وصولاً إلى سريره ، مرر لي إناءً فيه تبغ فاخر ، وأعطاني شريطة ورق بيضاء ، وقال ، خذ ، اعمل سجائرك بنفسك ودخّن معي ، تعالَ وسامرني ، إني أشعر بالملل .

أمسك بمجلة سوداء ، قرّب رأسه مني مبتسماً ، وتأملت الشيب الذي كان يغزو لحيته بكثافة ، ثم قال ، اكتشفت صدفة غريبة اليوم ، هذا ما أحبه في هذا البلد ، أنها صغيرة إلى درجة تصبح معها الصدفة أمراً عادياً ، أخوك كان مغرماً بخطيبتي السابقة ، بينما كنت أقلب هذه المجلة التي تتحدث عن الأثرياء ، وأبنائهم الفشلة ، لمحت صفحة مطوية ، فتحتها وإذا بها تتحدث عن خطيبتي السابقة ، خطيبتي التي فسخ أبوها الملعون خطبتنا لأن جنسيتي قد سحبت ، لم يتصل بي أو يزرني بل أرسل إليّ رسالة قصيرة في الهاتف ، مرزوق تمنياتي لك بالتوفيق لكن خطبتك مع مريم يجب أن تنتهي ، ثم وقف وقال وهو يسخر ، عرفت يومها أن حياتي قد انتهت وأنني لم أعد أشبه الآخرين ، لكنها لم تكن جميلة لهذه الدرجة على أيّة حال ، ثم عرض صورتها عليّ ، كانت حتماً مريم ، قلت في نفسي ، بينما استمر هو في الحديث ، حنك طويل وبشرة سمراء ، كويتية تقليدية ، أنت تعرف ذوقي في النساء ، يجب أن تكون رفيقةً من موسكو ، اسمها ناديا أو إيفانكا .

تسمرت في مكاني أجاهد لساني لأتحدث ، لكن قيد

الصدمة شلّني عن الحركة ، لا يُعقل أن تكون الصدفة بهذه الطريقة ، ربما كانت مريم كائناً غير أرضي يختبرني به الله ، لكن مرزوق لم يكن أحد هؤلاء الذي أخبّي عنهم الأسرار ، لم يكن أخي هو من طوى هذه الصفحة ، جاء صوتي متهدجاً ، التفت صوبي بلا مبالاته المعتادة :

– من الذي طواها؟ الجنّي؟

– مريم بنفسها

أنزل سيجارته من فمه ، واشتد صلب عوده قائماً ، عادت أُذناه إلى الوراء ، واستعد لسماع أشياء هو متعود على سماعها ، قصص غريبة لا تحدث لأي أحد :

– زارت السرداب في اليوم الذي زرناه ، هي حبيبتي

– وأين عرفتها؟

ضحك مستنكراً

– رأيتها في قهوة في الديرة

مطّ شفتيه ، وهز رأسه مقتنعاً :

– إنها فتاة طيبة القلب ، كانت متزوجة

– وتطلقت

– أراهنك أنها ذهبت أو تفكر بالذهاب إلى أفريقيا لمساعدة الفقراء

– نعم!

– وأراهنك أنها مشتركة في نادٍ للقراءة

- كيف لك أن تعرف كل هذا؟!

- هؤلاء الأغنياء لا يعجبهم العجب ، كنت واحداً منهم أنسيت ذلك؟

ابتسم وهو يعرف جوابي

- لقد توصلت إلى استنتاج شبيه باستنتاجك

- لأنك طالبي النجيب

ضحكت طويلاً :

- علمتني عن بعض الكتب لكنك لا تتحكم بطريقة تفكيري

- هذه الكتب هي من يتحكم بطريقة تفكيرك ، نحن انعكاس لمكتباتنا يا فارس ، لا أحد حر .

- هذا كلام لا يصدقه عقل ، أنت تقول إن شخصياتنا تتشابه لأننا نقرأ نفس الكتب؟

استوى في جلسته :

- لم أقل لك هذا ، قلت إن استنتاجاتنا متشابهة ، لكن التعامل مع هذه الاستنتاجات هو ما تحدده شخصياتنا ، أنا مثلاً حاسم في اتخاذ القرارات ، وأنت متردد .

شدهت من تشابه حكمه عليّ مع حكم سعود ، توقفت عند الجملة ، وسألته بغضب مكبوت :

- أنا متردد؟

- كل حاذق يراك سيطلق عليك هذا الحكم ، لكن لا

تخف سأكون معك حتى النهاية ، رغم أني أخاف من تأثيرها السيء عليك .

– أرني طريق الخروج من فضلك

غادرت بغضب ، لا أحب لأحد أن يتحدث باسم مشاعري ، أو أن يكون حكماً على تصرفاتي ، ثم من هذا الأعرج الشبيه بالقرصان والذي يعيش بعالم موازٍ عنا كي يقوّمني نفسياً؟ سألت نفسي هذا السؤال ، لم يعلّق مرزوق على مغادرتي ، وضع المخطوطات بيدي ، ورافقني حتى الباب بهدوء ، لم تكن هذه الدنيا الهشّة الموجودة في الكويت تشغل باله ، كان يعيش في وهم كتابة التاريخ ، ويخوض معركته المتخيلة مع اللا أحد .

(٤)

الثقة هي نقيض التردد الذي لا يصاب به إلا ضعاف الشخصية ، وصحيح أن الله قد خلقني مهيناً وحقيراً ومهمشاً ، لكنه لم يخلقني ضعيفاً جباناً ، خلقني قوي الشخصية شديد الشكيمة مثلما كان أجدادي وهم يقطعون الفيافي بسيوفهم المذهبة ، وخيولهم التي تسابق الريح ، بحثاً عن قبيلة يمزقون أوصالها ، وعن دولة مضعضعة الأركان يهزّون أطرافها ، وعن والٍ مدينة غشوم يلحقون به الهوان ، لا بد للمرء أن يحيا كما حَيا أجداده ويُقبر حيث قُبروا لأنه ما قيمة الإنسان بلا تاريخ لأجداده يقتات عليه إذا ما جاع ، وأنا الذي انتهى كل زادي من هذا التاريخ ، لأني أتيت عليه كله طوال سنوات جوعي .

برز سلطان في الوقت المحدد داخل المقهى الذي التقيت به مريم ، صافحني بحرارة ثم قال وهو يشد أطراف بدلته الرسمية ، لمن أدين بشرف هذه القهوة المفاجئة؟ لقد خرجت من العمل لأجلك ، أدرت يدي على أطراف قمة كوب الماء الفارغ ، ثم قلت ، للهجرة ، أشار بسبابته نحوي وهزّ رأسه متهللاً ، أنت الآن تقوم بالأمر الصواب ، القهوة على حسابي إذاً .

كان سلطان ابن شيخ لقبيلة تعيش في نجد ، جاء والده

إلى الكويت في خمسينيات القرن الماضي ، وحظي بسبب وجاهته على الجنسية الكويتية على الفور ، وتحول إلى أحد كبار رجال السياسة والأعمال في البلاد ، عرفته عن طريق مرزوق حيث كانا يعملان معاً كضابطين في الحرس الوطني ، وفي نفس السنة التي سُرّح فيها مرزوق ، استقال سلطان من عمله ليكمل دراسته ، ويصبح مستشاراً مالياً لدى شركة استثمارية ضخمة ، لم أتبين سر إعجاب سلطان بي لكنني خمنت أنه مجرد تعاطف بين شيخين جار الزمن على أحدهما بينما ابتسم الحظ للآخر .

ظل يحكي لمدة ساعتين عن عمله في الاستثمار ، وضرباته الناجحة في الأسواق ، لم أكن بحاجة لكل هذا ، ستكفيني الأفعال التي سأقوم بها في أيام قليلةٍ بقية حياتي ، احتسينا بلا إحساس منا نصف مخزون المقهى من الكافيين ، ثم نظر كل منا لساعته في لحظة صمت ، استأذن سلطان للعودة إلى العمل ، واستأذنت لمقابلة شخص آخر ، كانت مريم بلا ريب ، أمسكني من يدي لحظة خروجنا من المقهى ، وجرّني نحو طرف الشارع ، فهمت ما كان يصبو إليه ، وحاولت التخلص منه لكن قبضته الحديدية لم تترك لي مجالاً للتملص منها ، وقفنا أمام آلة سحب النقود ، سحب منها مبلغاً كبيراً من المال ووضعه في يدي ، سيساعدك على تدبر أمورك ، حاولت إقناعه بأنني أتدبر أموري جيداً ، ابتسم ، إنني أعرف الأوضاع

يا فارس ، اعتبرها عطيّة بين فارسين من البادية ، تجنب سلطان أن يلامس جرح الكبرياء فيني ، وضعت المبلغ بجيبي ، وقبلته قبلة الوداع الأخير ، همس في أُذني ، لن يكون هذا آخر لقاء ، سأزورك هناك ، حريٌّ بك أن تكون شخصاً ناجحاً ، لم يكن يعلم بأني سأوصم لبقية عمري بالسارق والهارب ، تحاشيت النظر إلى عينيه ومضيت .

عبرت شارعين سيراً على قدميّ قبل أن أصل إلى مبنى هيئة الاستثمار ، تظللت تحت نخلة وحيدة في الشارع المقابل ، وشرعت في التدخين وعيني على الباب ، خرجت مريم في موعدها المحدد ، تقدمت نحوها دون أن تشعر بي ، فاجأتها من الخلف ، صرخت بفرحة ثم قالت بغنج ، بدأت تأتي إلى العمل ، واتتك الشجاعة أخيراً ، قلت لها ، هناك أشياء يجب أن نتحدث عنها ، واقتدتها إلى خلف الشارع الذي كنا فيه ، أكملت ما تبقى من سيجارتي ، سأهاجر إلى لندن في غضون أسابيع ، إلى اللقاء ، ثم أعطيتها ظهري وركضت مسرعاً نحو المجهول .

وقفت مريم في منتصف الشارع وهي تصرخ ، فارس ، فارس ، لا تذهب ، بينما ركضت بأقصى ما لدي من سرعة ، كانت صرخاتها تصيبني بالقشعريرة ، وضعت يديّ على أذنيّ ، والرياح تتلقف الدموع من عينيّ وتذروها بعيدة ، ازداد ركضي سرعة ، وبدأ الصوت معه يخبو ويخفت ، ألقيت نظرة

سريعة إلى الوراء وانكسر قلبي معها ، رأيت وجهاً عابساً يبكي وخيّمت عليه خيبة أمل ، اختفى ضوء الضحكات منه ، وتيقنت أني عصفت بروح كانت تتعشقني ، لكن لا بد من ذلك ، وقفت عند أحد الحيطان ، وبكيت أمام المارة كما لم أبك من قبل ، صارعتُ عذاباتي بدموعي فما غلبت الأولى ولا مللت من الثانية .

كنت على يقين من أنني اخترت القرار الصائب ، لم يكن لشيء مثل هذا أن ينجح إلا في الأحلام ، وأنا لا أجرؤ على الحلم ، لا أحد منا يتجرأ ، كانت عبارات المشي بجانب الحائط ومداراة الساس ، كناية عن الخوف ، هي العبارات الشائعة التي نسمعها في طفولتنا ، وكان كبار السن في الحارة يخبروننني دوماً بأن لا أتورط في السياسة حتى لا يتلوث ملف والدي إذا جاء وقت التجنيس ، لكن هذا كله لم يكن ليأتي ، كانوا يخدعون أنفسهم بهذا الحديث كي لا يموتوا من القنوط

اجتمعنا في نفس اليوم داخل شقة مطلة على طريق المطار كان مبارك قد أجرها لإدارة العملية حيث أنها أقرب نقطة مسكونة إلى المطار ، تفاخر مبارك بمهارته في الحصول عليها بسرعة بعد أن أغرى مستأجرها الأصلي بمبلغ مالي ضخم ، وضع مرزوق طاولة اجتماعات ضخمة في صالة استقبال الضيوف ، بينما وضع كل أعضاء الطاقم حقائب سفرهم النهائية في الغرف ، صدرت التعليمات بأنه في حال أي فشل

في العملية فإنه يتحتم على الناجين من الاعتقال ، أو القتل ، أن يتجمعوا في هذا المكان ، سأل متعب وهو يحك شاربه النابت تواً ، هل سيكون هناك قتل؟ رد مبارك وهو يتفحص مواعيد العملية ، جزء من الأموال التي نسرقها ستكون عائدة لتجار مخدرات ، ماذا تتوقع أن تكون ردة فعلهم؟

دخل مرزوق نحو الغرفة الأخرى ، وشرع يستدعي الجميع بأسمائهم واحداً تلو الآخر مخبراً إياهم عن أدوارهم في العملية ، جاء دوري فطرقت الباب قبل أن أدخل ، اكتسى وجهه بملامح الجدية ، لبس قبعته العسكرية ، وجلس خلف مكتبه مثل جنرال حرب ، أشار عليّ بالجلوس في الكرسي أمامه ، وأخرج عصا صغيرة من درج المكتب ، ثم هب واقفاً نحوي ، وقال ، بني هل أنت مستعد لمهمتك التاريخية؟ جاهدت لكتم ضحكتي لكنها انفجرت ، مرزوق أنت تتقمص دور نابليون! ضربني بعصاه بقوة ثم صرخ ، خارج غرفة العمليات هذه سأكون صديقك ، أما الآن فأنا ضابطك وأنت الجندي المطيع ، هل تعلم كم معركة خسرها المحاربون بسبب هزلهم؟ أوتظن أن هذه العملية أقل من عملية بربروسا؟ أو إنزال النورماندي؟ هناك حياة قد تضيع إذا ما أخطأنا ، ونفوس قد تُزهق إذا ما تلكأنا عن المواعيد المحددة .

أطرقت رأسي بصمت ، حتى هدأ قليلاً ، ثم أعطاني دوري في العملية ، كان عليّ أن أنتظم في وظيفة محصل تبرعات في

جمعية خيرية لمدة أسبوعين ، اخترنا لك المهمة السهلة ، دخل مبارك بعد أن سمع الصراخ ، أجبت في قلبي ، هي المهمة الأصعب ، كيف واتتني الجرأة لأسرق أموال الأيتام والفقراء؟ كان أسهل عليّ أن أشارك مع القسم الذي سيسرق أموال تجار المخدرات ، معرّضاً نفسي للموت ، أكمل مبارك شرح التعليمات ، ستتخلف عن وضع أموال الإيجارات المحصلة للعقارات التابعة لأوقاف الجمعية في أسبوعين ، لكن هذه الإيجارات ألا تُحصل بشكل آلي عبر استقطاعات بنكية؟ تساءلت بسذاجة ، رد مرزوق ، لا تستطيع الجمعية الخيرية أن تُسجل كل هذه العقارات باسمها فتلجأ إلى أشخاص تثق بهم لتضعها باسمهم و تُحول جميع إيجارات هذه العقارات إلى أحد حساباتهم المخصصة للجمعية ، لكن هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن يُحولوا كل هذه المبالغ الضخمة إلى الجمعية كل أسبوعين دون أن تُثار شكوك من حولهم ، لذلك يأتي دورك في سحب هذه الأموال من حسابات هؤلاء وإيداعها يدوياً في حسابات الجمعية الخيرية ، هززت رأسي موافقاً ، استراح مبارك على الكرسي ، ثم أخبرني ، هناك نسبة مخاطرة طبعاً ، سيشعر مسؤولو التحصيل بالقلق حال عدم وصول المبلغ ، وسيرسلون كتاباً عاجلاً للإدارة بهذا الشأن ، لكن خمّن من سينقل هذا الكتاب؟ أشار لمرزوق وهو يضحك ضحكة ماكرة .

(٥)

ظللت أسأل نفسي ، كيف لمضغة صغيرة بحجم اليد أن تتحكم في قرار الإنسان؟ وكيف لهذا الإنسان أن يعجز بكل جبروته على أن يحاربها؟ يغزوه الأرق بسببها فيتقلب في الفراش محروماً من لذة الكرى ، ويبكي مختبئاً في ثنايا الأسطح أمام عين الله ، وبعيداً عن أعين الناس ، لأن أباه العجوز الصلب قال له ذات يوم ، إن البكاء لا يليق بالرجال ، بكيت طويلاً تلك الليلة ولم أترك مكاناً إلا وسقيته بمعين دمعي ، وما زادني ذلك إلا حنيناً تموج به نفسي لها ، ليتني ما ذهبت إلى تلك القهوة ليلتها ، ليتني جلست في بيتي أسامر أبي ، أو ألاطف أبناء أختي ، أو أعبث مع أخي ، أو أهيم متسكعاً في شوارع تيماء ، متنقلاً بين دواوينها التي لا تغلق أبوابها في وجه الضيوف ، لماذا أيها الرب الجميل الجالس على عرشك من فوق سبع سماوات خلقتني بدوناً؟ ليت ناقة جدي وصلت إلى هذه الأرض قبل موعدها المقدر لها بعشرين سنة ، أو ليتها ما جاءت ، ليتني ما ولدت ، وما تزوج أبي أمي ، ليتني خلقت من العدم ، أو ليت الله لم يخلق هذه الدنيا في ستة أيام .

لم أحسب أن الحب سيوردني مهلكة لا فكاك منها ، خدعت نفسي فقلت إنها نشوة عابرة ، ستنتهي بمجرد أن تمل هي فمن يرغب أصلاً بالارتباط ببائس مثلي ، لكنها لم تكن تهتم بنواقصي ، أعمتها عين العشق فصارت ترى فيّ ملاكاً كاملاً ، ولم أكن إلا ذئباً مدنساً بالخطايا ، يتسربل بثياب إنسان .

تذكرت كلمات مبارك عن أسماء ، قال لي ، ستكره كل أغنياتكما معاً ، وتلعن قصائدكما ، وتمزق أوراقكما ، وتتحسر على كل دقيقة مرت من مكالماتكما ، ستلعنها بقدر ما قلت لها من كلمات أحبك ، أفتقدك ، أعشقك ، ثم تبكي وتبكي ، وتُترك كأنك لم تعشق من قبل ، حينها ستقدر العاشقين ، وتراهم أبطالاً ، كلما مر أمامك واحد منهم ، مددت يدك إلى صدرك ، محاولاً تلمس الجرح الغائر في قلبك ، لكنك لن تصل إليه يوماً ولن تستطيع علاجه أبداً ، حتى وإن أحببت مرة أخرى ، ستبقى ندوبه فيك إلى أن تُقبر في حفرتك .

وقفت على رأس والدي أناوله القهوة ، ارتسمت ابتسامة هادئة على محياه ، وطلب مني الجلوس بعد الفنجان الرابع ، تمنّعت لكنه أصرّ علي ، وقال ، فارس ، أخبرني فيصل بأمر لندن وأنا موافق عليه ، قبلت رأسه فقال لي ، ولكن بشرط ، أن تذهب ولا تعود ، مهما كان الكلام الذي سأخبرك به الآن ، أخبرني يا أبي كلي فداك؟ أنا مصاب بالمراحل الأخيرة من

السرطان ، اكتشفوه متأخراً ، فقدت توازني ، ولكن هل هم متأكدون؟ كيف لهذا أن يحدث يا أبتِ؟ هذا غير ممكن ، قال لي ، إنها إرادة الله يا بني ، غادر ولا تلتفت ، اصنع مستقبلك وتجرّد من ردائك إن استلزم الأمر بما لا يخالف أمر الله ، لاتكن مثلنا نحن الذين عشنا وهم الماضي وتناسينا الحاضر ، أجهشت بالبكاء فاحتضنني بصدره الحاني ، لا تبكِ يا بني ، لا تبكِ يا بني ، إنها إرادة الله كي ألتقي بأمك وسعود .

توجهت نحو غرفة فيصل وركلت بابها ، نهض من نومه مذعوراً وهو يرى نظرات الشرر تتطاير من عيني ، طوقت عنقه بيدي ثم أطبقت عليه ، وسألته لماذا لم يخبرني بمرض والدي؟ لماذا الجميع في هذا البيت اللعين يحاولون أن يخبؤوا الأمور عني ويروني غير أهل لها؟ حاول فيصل أن يشرح لي أن والدي لم يعلم بالمرض إلا قبل شهر وطلب من الجميع عدم إخباري حتى لا أغير رأيي في الهجرة ، وعندما تيقن بقرب الموعد أخبرني بنفسه ، هدأت روحي قليلاً وجلست على الزاوية ، نظر إلي فيصل بحسرة ، سارع إلي وعانقني ، كل شيء سيكون بخير يا أخي ، نفّذ وصيته بالرحيل فحسب .

واظبت على حضور الوظيفة المزيفة في الأسبوع الأول ، لم يكن هناك عمل حقيقي أقوم به سوى الجلوس وشرب الشاي وكتابة القصائد على صفحات الجرائد القديمة الموجودة في المكان ، حاول الموظفون الفارغون عبثاً الاحتكاك بي ، لكن

التعليمات كانت تنص على عدم الزيادة في الكلام معهم إلا في حدود الضرورة ، تناسيت حديث مرزوق الصغير عن الجندي والضابط ورحت أحكي مع أحد الشباب العاملين ، كان في العشرين من عمره ، أكمل تعليمه الثانوي وتوقف لأن الشهادة غير مجدية بالنسبة للبدون كما زعم ، يعمل كل يوم تسع ساعات في اللجنة ليحصل على راتب يُمكّنه من شراء دراجة نارية بعد تسعة أشهر من العمل ، تعجبت لقتاله من أجل المتعة ، وسألته عما إذا أراد أن يستخدم هذه الأموال في شيء أفضل؟ هالني جوابه ، كان مفعماً باليأس ، وراح يقص عليّ قصص أقربائه الذين تخرجوا بشهاداتهم العليا ، ثم أُحبطوا بسبب الرواتب الضئيلة التي كانوا يتقاضونها ، همست لنفسي ، انا أخبر منك بهذا صدقني ، ثم سألني :

– هل درست الجامعة؟

– تخصص إدارة أعمال

– وها أنت تعمل بوظيفة أدنى مني

– لكن الشهادة مهمة في كل دول العالم

اعتدل في جلسته ، وأخرج قلماً صغيراً من جيبه العلوي ، وأمسك ورقةً ليشرح لي :

– أنا وأنت لسنا من العالم ، نحن بدون ، وأنت كشاب بدون من اللازم عليك أن تبحث عن وظيفة بعد تخرجك لتأكل منها وتشرب ، حتى يأتي دورك في النجاح ، لكن بما

أنك بدون فإنك لن تنجح في حياتك أبداً ، فتصبح هذه الوظيفة المؤقتة وظيفة أساسية ، ثم بعد أن تتعايش معها تُطرد غالباً منها عند أول أزمة مالية تمر بها المؤسسة التي تعمل بها ، فتصبح هذه الوظيفة المؤقتة هي الوظيفة الحلم بالنسبة لك .

صفّق أكبر الموظفين سناً تأييداً للكلام ثم قال :

– هذا الكلام يتفق عليه كل البدون

أجبته :

– لأنه حقيقة ثابتة أيها العم

– يعجبني أنكم أيها الجيل الجديد تعرفون القضية ، وتعرفون نهايتها ، لكن مشكلتكم أنكم تخافون الكلمة

– لماذا لم تتكلموا أنتم؟

– زمننا كان مختلفاً

كيف لي أن أخبره أن سيف الجلاد لا يصدأ؟

زاد الحديث الصغير معهم رغبتي بالرحيل عن الوطن ، منذ أول يوم أعلنت فيه انضمامي للعملية ، بدأت آفاق فكري تتوسع وتيقنت أن علبة السردين التي أعيش فيها ليست منزلاً ، وأن حياتي التي أطارد فيها لقمة عيشي التي لن تكفيني هي قصة موت بشري بطيئة ، وأن البدون يتحملون جزءاً من وزر معاناتهم لأنهم ارتضوا الجلوس مكتوفي الأيدي ، كانت الأحلام السخيفة والبسيطة لأقراني تثير حنقي وتصيبني بالعار في آن واحد .

جاء موعد التسليم ، أعطاني المدير البطاقات البنكية ، وطلب مني سحب المبالغ كاملة وتسليمها للإدارة ، ثم إحضار وصل أمانة منها لقسمنا ، وقعت على ورقتين ، ومضيت إلى آلات صرف اختارها لي مبارك بعناية ، سحبت المبالغ على مدى أيام واتجهت بها نحو البيت كما كان مخططاً ، صنعت جبلاً من الأموال وجلست على كرسيي أتأملها ، أشعلت سيجارتي ، ولازمني شعور الفخر لأول مرة بحياتي منذ أمد طويل ، لم أكن خائفاً ، غدا قلبي مثل الصخرة ، فكرت في ساعات سعود الأخيرة قبل الموت ، ضخت أجسامنا الأدرينالين طوال حياتنا حتى نفدت منا فما بتنا نحس بأي شيء ، ماتت قلوبنا ، وسللنا الخناجر نروي منها ظمأنا من الانتقام .

هل أزهر الجرح القديم على مصابيح الشتاء؟

محمد الثبيتي

(١)

ظل شيطان العشق يوسوس لي طوال الاسبوع ، كان عقلي يُكبت فؤادي كلما حاول الفؤاد أن يسود بالقرار ، لكنني استسلمت له في النهاية ، لا ضير من مراوغة القلب أحياناً ، قلت في نفسي ، سأخدعه مقدماً له طعماً صغيراً ، وسأرى مريم من بعيد دون أن أقترب منها لعلّي أرتاح ، لم أشعر بي إلا وأنا أقود السيارة من الجهراء في أقصى شمال الكويت ، إلى قرطبة في منتصفها ، وجدت نفسي فجأة أمام بيتها ، كان المساء قد كسا السماء ، بينما طرّزت النجوم اللامعة رداءه الأسود ، جلست على الرصيف المقابل ، واستندت برأسي إلى عمود الإنارة ، بعد انتظار دام ساعةً كاملة ، لاحت لي سيارة حديثة الطراز ، ركزت النظر فيها قبل أن يخيب أملي ، لم يكن سوى السائق ذي الجنسية الأسيوية ، لم يلاحظ أحد وجودي الشاذ في الشارع ، ربما كانت كرامة إلهية سد الله بها أبصارهم عني ، لكنني لم أكن ولياً ، ارتكبت من الخطايا ما يضع به إبليس يده على رأسه متهولاً منها ، لم أحصل على غنيمتي ، عدت إلى بيتي خالي الوفاض ، مثلما كنت أعود طوال حياتي .

عـدت في اليـوم التـالي بإصـرار لا ينثني ، جلست على نفس الرصـيف وسنّدت رأسي إلى عـمـود الإنارة ذاته ، لكني كنت محظوظاً هذه المرة ، ظهرت مريم شاحبة الوجه وهي تنزل من درج المنزل المركوز وسطه ، كانت تعبر درجات السلّم بخفة وثبات ، لكن شيئاً ما بداخلها كان مكسوراً ، تتبعت سيارتها حتى وصلت إلى الجمعية على بُعد شوارع قليلة ، نزلت فنزلت خلفها لا ألوي على شيء ، وقعت عيناها عليّ صدفة ، تنهدت تنهيدة طويلة ، ثم أشاحت بوجهها عني ، لحقتها فخرجت من السوق حتى وصلت إلى مكان ناء خلف الجمعية :

- ماذا تريد أرجوك قل لي ماذا تريد؟

وجمت ولم أجب .

- ألم تتركني؟ ألم تنهِ علاقتك بي دون أن تقول وداعا؟

- فلنركب السيارة ونتفاهم .

وقفت مريم بلا حراك للحظات ، ثم سارت نحو سيارتها وتبعتها :

- والدي مصاب بالسرطان .

- هذا مؤسف

- وأشعر بالتبلد ساعة ، وبالحسرة ساعة أخرى

- إنه والدك بالطبع ستشعر بالحسرة

- ليست على والدي فحسب

تنهدتُ بسخرية

– إنني جاد ، أنت الوحيدة التي أحببتها ، لكن الظروف . . .

– بإمكان المرء أن يصنع ظروفه يا فارس ، قلت لك هذا أكثر من مرة

– . . . .

– انظر إلى كم الأشخاص الذين انطلقوا من الصفر

– ليس هناك صفر لنا ، نحن كائنات منقوصة ألم أقل لك من قبل؟

– ماذا تريد مني الآن؟

– أحاول الفهم ، لماذا التمرد والحب والشقاء الذي تورطين نفسك به؟

– لأني مللت

– الملل له دوافع وأسباب ، أنا أملّ لأني فقير ومقيّد هنا ، كيف لإنسان يملك بنكاً أن يصاب بالملل؟

– أنت تصرّ على محاكمتي وكأنني المتسببة بشقائك ومنذ اليوم الأول لعلاقتنا وأنت تلمح إلى وظيفتي ومنصبي وراتبي وثروتي .

– تقصدين أنني طامع في ثروتك؟

– بل أقصد أن كل ما تفكر به هو المال .

صرخت فيها :

– لأنني كامل في كل شيء ، إلا المال ، أنت تظنين أن

أجدادي كانوا هكذا؟ أجدادي كانوا يجوبون البراري ، يسطون على كل شيء في حين كان أجدادك يلقحون النخيل في قرية ما .

– ليس لي ذنب!

– أنت صاحبة امتياز طبقي ، هذا هو ذنبكِ ، أنك ولدت غنية ولن تستطيعي أن تغيري هذا

– وأنت جئت لتحاكمني؟

– جئت لأحصل على وداع لائق .

– . .

– أنا آسف جرحت مشاعرك

أمسكت مريم بيدي وطبعت على خدّي قبلة ناعمة ، كان هذا وداعي اللائق وإيذاناً لي بالرحيل ، تركت قلبي معها وشعرت بالانتصار لأن مرزوق ظل يقنعني طوال أيام بأنها لم تكن تحبني لذاتي ، لقد أحبتني لأن مجيئي وافق فترة تمردها ، كنت أنا فأر تجارب تختبر به صبرها أمام المجتمع ، لكن هذا الفأر هو من اختار التمرد وشق طريقه الخاص .

(٢)

حوّل مبارك الشقة المستأجرة إلى غرفة حرب حقيقية ، وظل مرزوق يرتدي قبعته العسكرية جالساً أمام الهاتف الأرضي ، يستقبل المكالمات ، ويوجه أفراد الطاقم الذين كانوا يجوبون شوارع البلاد ، يزرعون الكاميرات ، ويسجلون المواعيد بدقة ، ويختلسون المبالغ ، ويزورون الحسابات ، وعندما حل المساء جلسنا ثلاثتنا على طاولة الاجتماع الكبيرة ، أخذ مبارك يخبرني عن والدي الذي زار كل دواوين الجهراء ليلة أمس في زيارة وداع أخيرة وكيف أنه بكى طويلاً عندما ودع رفاق السلاح في الجيش ، لاحظت حينها أن فعل الموت صار شيئاً مألوفاً بالنسبة لنا ، لم تكن الدنيا عندنا ثمينة كي نخاف عليها ، ولم يكن القبر بأسوأ منها ، أحصيت أنني أعرف من الموتى أكثر مما أعرف من الأحياء وأنا لا زلت الخامسة والعشرين من عمري ، مات والدا مبارك ، ومات والد مرزوق ، وماتت والدتي ، ومات أخي ، واليوم يستعد أبي له ، عادت موعظة أخي فيصل عن الموت تدور في ذهني ، وكزني مبارك بذراعه ، هل ستبقى هنا؟ لا لقد أوصاني الرجل العجوز بالرحيل ، أجبته بحذر ، إنه رجل حكيم ، هتف مرزوق .

كانت ليلة من هانئة من طراز الليالي التي يستريح فيها

الصاحب لصاحبه ، فيشق ستر كل سر من أسراره ، أعد مرزوق الشاي بعناية وجلس على صدر الطاولة ماداً رجله العرجاء على كرسي فارغ ، وزّع مبارك سجائره علينا ، وسأل ، هل تمنى أحد منكم يوماً أن يهجر كل هذه الدنيا ، يشتري جمالاً ويسكن الصحراء ، يرعاها ، ويشرب لبنها ، دون أن يفكر بهمومها أو مآسيها؟

تبسم مرزوق وقال ، نجد العذبة ، عندما وقعت الأزمة أول مرة راودني إحساس بأن شيئاً يطاردني ويريد دهسي ، ركضت حتى خارت قواي ، ثم توقفت فجأة وفكرت ، ماذا لو ذهبت إلى مسقط رأس اجدادي؟ القصيم ، باريس نجد ، فأشتري مزرعة صغيرة فيها ، وأروي فسائل النخل حتى تثمر لأبنائي فيما بعد ، ولا أسمع من الأصوات إلا صوت صرصار الليل ، ومضخة المياه ، ثم رأيت كلاماً للنبي يشبه ما كنت أفكر فيه عن أن زماناً يأتي على الناس ، يكون خيرٌ لهم فيه أن يعتزلوا الدنيا ، ويسكنوا في الجبال مع أغنامهم .

سأله مبارك :

– ما الذي ذهب بأجدادك إلى القصيم؟

– كان جدي الأكبر بدوياً في حائل واختلف مع إخوته ، فاتجه إلى القصيم حتى صار فلاحاً ، ثم اتجه أبنائه من بعده إلى الكويت

– كنت حائلياً ، ثم صرت قصيمياً ، ثم كويتياً

– وأنا الآن لا شيء

لم أستسغ فكرة الزهد بالدنيا ، لم أرتو من معين الحياة بعد ولم تسنح لي الفرصة حتى أملّ منها ، أو أشعر بالاكتفاء ، ولن أسمح لليأس أن يأخذ فرصته فيّ ، لأنني رأيت نتائجه على أخي ، أما مبارك ومرزوق فقد اكتفيا من الحياة ، لأن الأول طاف الدنيا وسكن في كل مدن الأرض ، والثاني كان على الضفة الأخرى يعيش مواطناً مرفهاً ، حتى ولو كانت مدة رفاهيته قصيرة ، أما أنا الذي قضيت عمري أتقلب في البؤس فلماذا أزهد في شيء لم أحصل عليه؟ أريد أن أصحو كل صباح على منبه الساعة ، وقد سرق نصف نومي ، لأذهب متثاقلاً لوظيفة حكومية لا أحبها ، متقاضياً راتباً أرى أني أستحق أكثر منه ، لقاء عمل لا شيء ، شاكياً جشع التجار ، وغلاء الأسعار ، أريد أن أكون إنساناً طبيعياً ، يفرح ساعة فوز المنتخب الوطني ، ويأسف ساعة خسارته ، مللت من كوني استثنائياً ، مللنا جميعنا من كوننا كائنات لها وضعها الخاص ، مثل حيوانات توشك على الانقراض .

قطع مبارك حبال أفكاري التي كنت أنسجها في رأسي ، قال وهو ينظر من النافذة واقفاً :

– وقفت اليوم أمام المدرسة التي تعمل فيها

– من؟ أسماء!

– رأيتها وهي تخرج بعد انتهاء الدوام ، كانت أجمل من الحلم ، لم تزدها التجاعيد إلا بهاءً ، شفتاها مكتنزتان كعادتهما

- مبارك توقف عن هذا!

- هذه المرة الثانية التي أراها منذ قدومي إلى الكويت

تدخّل مرزوق :

- يجب أن نحافظ على تركيزنا أيها الرفيق

لكن مبارك كان يكذب ، لم تكن هذه المرة الأولى أو الثانية ، فلقد ظل يراقبها منذ اليوم الأول لوصوله إلى الكويت متتبعاً إياها ساعة خروجها من عملها في المدرسة وساعة ذهابها للتسوق رفقة أبنائها أو لزيارة بيت والدها ، كان يروق له في كل مرة أن يركن سيارته قريباً من المكان الذي تكون هي فيه ، ويتخيّل لو أنهما أكملا حياتهما معاً .

- كيف تجري أمور العملية؟ لم تخبراني الكثير

تساءلت بقلق

- الأمور على ما يرام

قال مرزوق ، ثم أكمل :

- الجمعيات الخيرية انتهى موضوعها ، بقيت المكاتب السياحية ، سنهاجم أفرعها الثلاثة في وقت واحد ، ثم نسافر في نفس اليوم ، لأن تجار المخدرات خطرون جداً

- ولماذا لا نسرقها الآن؟

- لأننا نراقب المكان ، أي خطأ صغير مع هؤلاء يعني موتنا جميعاً

نهضت واقفاً نحو النافذة ، أشار لي مبارك بيده نحو المطار

الذي كانت تحيط بالطريق المؤدية إليه أشجار السدر ذات الفروع المتدلية ، هناك خلف هذا السياج الشجري يكمن الخلاص ، نصيحتي لك عندما تصل إلى هناك ، اكفر بكل الناس ، لا تؤمن بأحد ، الإيمان بالأشخاص ، يجعلك ضعيفاً ، وإياك أن تفكر في الوطن ، سيتعبك التفكير ، اقتل فكرة الوطن بداخلك ، ولا تكن خجلاً من التعرف على النساء ، فالبرودة قاتلة بقدر ماهي الوحدة كذلك ، ثم أخرج حبة قهوة من جيبه ووضعها بين أسنانه ، واتجه نحو مرزوق مخرجاً من جيبه بندقية لوّح بها في الهواء ، قبل أن يرميها على الطاولة ، مسدس تسعة ملّي بيريتا ، الأفضل في السوق ، تلقفها مرزوق بسرعة ، ثم دقق فيها بمهارة ، إنها الأفضل بلا شك ، ثم أخرج بندقيته من جيبه ، لكن البلجيكي خاض معي حياتي كلها ، قالها وهو يستعرض البندقيتين في يده والسيجارة تتدلى من فمه .

سحب مبارك البندقية من يد مرزوق ومدها لي ، أنت لم تحمل سلاحاً من قبل ، جرّب ، أمسكتها بهشاشة وسرت في جسدي قشعريرة عنيفة ، شددت على مقبضها ، وقلبتها بيدي ، صوّبتها نحو مرزوق ، وأوهمت نفسي بأني ضغطت الزناد ، ثم رفعت فوهة البندقية نحو فمي ونفخت فيها ، هز مبارك كتفي ضاحكاً وهو يقول ، آمل أنك لن تحتاجها فيما بعد ، شعرت بذلك الشعور الذي يداهم الإنسان إذا ما تيقن من موضع قوته ولم يكن شعوراً مريحاً ، أخافني كل ذلك .

(٣)

بدأت إجـراءات دخـول والـدي إلى مـسـتـشـفى العناية التلطيفية ، كان ذلك إيذاناً بأنه بلغ مرحلة الاحتضار الرسمية ، حيث يذهب مرضى السرطان الميؤوس من شفائهم إلى هناك ليموتوا بسلام بين عائلاتهم ، استند والدي على ذراع فيصل ، فـيـمـا رحت أنهي تسـجـيل أوراق الدخـول ، وجّـهت الموظفـة المسؤولة توجيهاتها الحاسمة ، وقالت إن الزيارات مفتوحة في جميع أوقات اليوم بشرط عدم التجمع في الممرات ، وأعطتني رزمة لحفلات وفعاليات خاصة بالنزلاء ، ولم يمض المساء حتى توافـد العـشـرات من الأقـارب والمعـارف لزيارة والدي ، وغـدت معهم أجنحة المستشفى مثل ملجأ عتيق في ليلة عاصفة ، أثار ذلك حنق المسؤولة لكنها راقبت بصمت ولم تتكلم .

وصل عضو البرلمان الممثل لقبيلتنا ، ثم وصل بعده سعد الحاطب وهو من كبار التجار في الجهراء ، كان ينحدر من أصول متواضعة في القبيلة ، حيث أن جده كان حطّاباً ، لكن الدولة الحديثة لم تكن تعترف بتراتبية القبيلة ، فتمكن من بناء ثروته عبر شركات السمسرة العقارية والتمويل ، ثم تمكن بواسطتها من أن يترقى داخل القبيلة ليصبح أحد وجهائها ، سلّم الجميع

على والدي ، ثم جاء العشاء بأوانٍ ضخمة ، ذبح الحاطب خمسة شياه لأجل والدي كدلالةً على التقدير ، انفجرت المسؤولة وقالت إن هذا أمر غير مقبول ، تدخل نائب البرلمان وعرّف بنفسه للمسؤولة لكنها لم تعره انتباهاً وظلت تصرخ فيّ وفي أخي فيصل ، ثم وردها اتصال على هاتفها النقال ، أمرها وزير الصحة بغض الطرف استجابة لضغط عضو البرلمان ، ارتسمت ابتسامة نصر على وجهي وأنا أراقب قسماتها الغاضبة .

بعد انفضاض الجمع ، تحلّقنا حول والدي ، أمسكت أختي يده وبدأت تبكي ، بينما كان أولادها يلعبون حول السرير ، أشحت وفيصل النظر عن والدي ، سقط الرجل العظيم أخيراً ، لم يتوقع أحد أن يتقلص والدي الضخم البنية ليصبح مثل طير منكمش على فراش أبيض ، لكنه لم يكن يفكر بالموت ، لا زالت عينه منصبة على الدنيا يحاول حماية أبنائه ، طلب من جوزا تربية أبنائها خير تربية ، ورعاية زوجها ، وطلب من فيصل أن يتزوج بسرعة ، و يحافظ على بيتنا الشعبي في تيماء بأي ثمن ، ثم طلب مني ألا أعود أبداً ، وأن أجلب فيصل إلى هناك بعدما أستقر ، لأن الكويت لم تعد كما هي في السابق ، وأن أشحن بقية سيوف العائلة وصورها إلى لندن ، لتُوضع في أي متحف يخص تاريخ المنطقة ، قالت أختي بصوت باكٍ ، إنك لن تموت يا أبي ، لكنه أشار بيده وقال إنه يرى الموت ينتظره خلف

الباب ، ولن ينازله ، بل سيتركه يأخذ بيده إلى الله فوق سبع سماوات ، لأن الحياة الدنيا فانية ، والحياة مع الله باقية .

مع مجيء الصباح ، عادت أختي إلى بيتها رفقة أبنائها ، بينما نام فيصل على الأريكة بعد أن صلى الفجر ، وبقيت وحدي أدافع النوم ، حينما سمعت همساً باسمي ، فتحت عينيّ فإذا بي أجد شبحاً يقف أمامي ، فلتعطني سيجارة ، قال لي بصوت خفيف خشية أن يسمعه أحد ، حاولت إقناع والدي بأن ذلك مضر له ، لكن العذر بدا سخيفاً في هذا الوقت ، أعطيته سيجارة واستأذنت في التدخين معه ، هز رأسه موافقاً ، وقفنا ندخن بأطراف متجمدة في حديقة المستشفى ، ضربني بقبضة يده كما كان يفعل معي منذ أن كنت صغيراً ليدربني على القتال رغم مقتي لمناظر الدماء والعنف ، ضربتان باليد اليسرى ثم ضربة باليد اليمنى ، وضعت يديّ تحت إبطيه ورفعته إلى أعلى ودرت به دوراناً خفيفاً ، ضحكنا طويلاً قبل أن نستلقي على العشب من التعب ، مثل طفلين بللهما المطر .

أجال والدي ببصره بين السماء وبيني ثم قال ، كنت تظن في صغرك أن الغيوم هي الدول الموجودة على الجانب الآخر من الكرة الأرضية ، جئتني ذات مرة وقلت لي ، إن هذه الغيمة البيضاء الطويلة هي روسيا ، سألتك مندهشاً ، كيف تعرف خريطة روسيا ، ثم اشتريت لك تلسكوباً لتصعد إلى السطح وتتعلم الفلك ، وصرت تحلم بأن تكون رائد فضاء .

– لا زلت أذكر أسماء النجوم .

– نعم ، بحثنا عن بدلة فضاء في الأسواق لكننا لم نجد ، صُدم الباعة من الطلب الغريب ، فذهبنا إلى الخيّاط وفصلنا لك بدلة خاصة ، بخوذة شرطة مستعملة اشتريناها من سوق الجمعة .

– كل ذلك بسبب درس تعلمناه في المنهج عن رائد فضاء نسيت اسمه ، كان أميراً .

بدت ملامح الرضا على وجه أبي وهو ينظر لي ، تمتم بشفتيه بكلمات غير مفهومة ، ثم قال :

– فارس أريدك أن تفعل شيئاً من أجلي

– ما هو يا أبت؟

– هناك شخص لا أحبه ، أريدك أن تبرحه ضربا

قهقهت بضحكة مجاملةٍ له

– إنني جاد!

– ولكن لماذا؟

– لأنني لا أحبه فقط

حملقت فيه بتعجب .

– كفى ، ألن تقبل بتحقيق أمنية رجل عجوز يحتضر؟

– لست عجوزاً إلى هذه الدرجة ، أبي

– ولكني أحتضر

– أين يعيش؟

– إنه يعمل على بعد أمتار قليلة في المستشفى الصدري ، سيكون موجوداً في غضون دقائق داخل مكتبه ، سدد له لكمتين ، ثم أسقطه أرضاً ، وضع رجلك فوق رأسه ، اضغط عليه قليلاً ثم اهرب .

أجبت بعد تردد :

– يجب أن تبقى هنا

– وأفوّت كل هذه المتعة؟! كلا

توصلت إلى قناعة بأن المغادرين أياً كان نوع مغادرتهم يقومون بفعل الأشياء التي كانوا يتخيلونها ، ولم يتصوروا يوماً أن يفعلوها حتى في قرارة أنفسهم ، بالنسبة لوالدي كانت خيالاته المتعلقة بوضع رأس رجل تحت رجله هي أمنيته الأخيرة قبل الخروج من بوابة الدنيا .

صعدت به إلى الأعلى حيث خلع ثياب المستشفى ولبس ثيابه العادية ، ثم انسل معي من الباب الخلفي ، بعيداً عن أعين الممرضين ، ركبنا السيارة ، ومشينا فيها شارعين قبل أن نصل إلى المستشفى الصدري ، ارتديت قبعة رياضية لأعمي كاميرات المراقبة عن وجهي ، ثم دخلنا من الباب كمراجعين منفصلين ، أشار لي بإيماءة برأسه إلى المكتب المقصود ، كان موظفاً في العلاقات العامة كما أشارت اللوحة التعريفية خارج مكتبه ، ألقيت عليه السلام ، ثم ضربته بقبضة يدي بلا مقدمات ، سقط على الأرض من الضربة الأولى ، فوضعت

رجلي على رأسه وفركت بها الأرض ، ثم بصقت عليه وخرجت من الباب ، راودني ذلك الشعور الذي يجعل المرء يتصرف كطاغية ، أحسست بأني إله صغير يلقي بعقاباته على العصاة والمذنبين ، عدت إليه مرة أخرى ، كان يزحف على الأرض وهو يئن والدم يتطاير من أنفه ، ركلته برجلي مرات حتى هشّمت وجهه ، تجمع الموظفون محاولين إمساكي ، سحبت قلماً من جيب أحدهم وبدأت أطعن كل من اعترض طريقي ، ابتعدوا خوفاً مني ، فعدت لضرب الموظف ، سحبته نحو باب المستشفى وبصقت عليه مرة أخرى ثم مضيت في طريقي بملابسي التي تلطخت بالدماء مثل قميص يوسف الملفق ، دون أن يعترضني أحد .

تراجع والدي خطوات وهو يشاهد ابنه يتحول إلى وحش مفترس ، لم يعلم إن كان يرى حقيقة ابنه التي أخفاها عنه طوال سنين ، أو أنها مجرد نزوة غضب ، لم أكن أنا أعلم عن ذلك أيضاً ، كل ما كنت أذكره هو الحقد المغلول والمصوّب تجاه الرجل الذي ترددت في ضربه قبل دقائق وهو ملقى على الأرض ومضرجاً بدمائه ، رأيت فيه كل عذابات أصدقائي التي ما انتقم لها أحد ، كنت أدهسه برجلي من أجل سعود ، ومرزوق ، ومبارك ، ومهدي ، والآخرين ، ولم أتوقف إلا عندما شعرت بالتعب ، كان آخر ما أذكره هو صوت أنينه من خلف أسنانه المكسورة ، ماذا فعلت لك؟ لم تفعل لي شيئاً أيها

الرجل المجهول ، اسأل ماذا فعلت بي الأيام .

استلقى والدي على سريره ، مسح العرق الذي رشح من جبينه ، ولم يعلّق على الأحداث ، لكن نظرته الطويلة كانت تخبرني بحديثه المكتوم في صدره ، وضع الغطاء فوق رأسه ، وأشار لي بيده طالباً مني الرحيل ، أغلقت الباب بخفة ، فِزع فيصل ولحق بي ، أمسك ثيابي ، وسألني بغضب عن مصدر الدماء ، هذا ليس أنا يا فيصل ، أخرجت اليوم أسوأ ما فيّ من شرور ، تفطنت إلى قدرة الإنسان مهما كان طيباً على الإيذاء إذا ما تعرض للإذلال طويلاً ، لأنه يحمل روحاً شريرة توازي روحه الخيّرة .

(٤)

لم يتبق سوى يوم واحد على موعد العملية ، استولت شياطين الجنون على عقل مرزوق فراح يمشي في الشقة لابساً بدلته العسكرية ، وواضعاً خريطة العالم على الطاولة ، ومشيراً بخطوط سوداء عريضة إلى خطة سير الرحلة ، من الكويت ، إلى فرنسا ، إلى بريطانيا ، سألته عن مغزى وجود الخريطة فلم يجب ، وظل يدور ويدور متوتراً حولها ، فيما كان الآخرون يتضاحكون عليه ، دخل مبارك فنهرهم وطلب من الجميع الاستعداد للسمرة ، أمسكت بخليفة :

– سمرة ماذا؟

– مبارك يقيم اليوم حفلة بمناسبة رحيلنا ، سيحييها مطربون كبار

– لم يقل لنا!

– تركها مفاجأة للجميع

أقحم مهدي نفسه في حديثنا عنوة :

– يُقال أنّه دفع أكثر من عشرة آلاف دينار فيها

– وهل هي خاصة؟

سألت خليفة فأجاب مهدي :

- خبرها منتشر في كل الكويت ، وسيأتي الجميع

سرنا في موكب من سيارتين في طريق الملك فهد نحو صحراء جنوب الكويت حيث ستُحيى السمرة ، في سيارة اللاند كروزر الأولى ، جلس مهدي قبال عجلة القيادة ، ومبارك بجانبه ، وفي الخلف جلس مرزوق خلف مبارك ، فيما جلس خليفة خلف مهدي ، وأنا في وسطهما ، وركب بقية أفراد الطاقم السيارة الأخرى ، كان مرزوق الأكثر توتراً وهو يهذي ، أيها الإخوة ، معارك طويلة مستمرة من أجل تحقيق المبادئ التي آمنا بها ، والتي آمن بها كل فرد من أبناء هذا الوطن ، التفت نحوي و قال ، إنه خطاب لزعيم الأمة ، جمال عبدالناصر ، ثم ضرب كتف مبارك وسأله ، هل عندك الحاجة؟ أجاب مبارك ، ستحصل عليها عندما نصل إلى هناك ، لكنني متوتر جداً! قال مرزوق ، أخرج مبارك زجاجة خمر ، وكأسين من تحت الكرسي ، صب لمرزوق كأساً ، وصب لنفسه آخر ، عن إذنكم أيها السادة لكن رحبوا بسكرة مرزوق الأولى ، ثم ضَحِك بينما كان مرزوق يشرب الكأس وهو يغالب نفسه .

كان المخيم ضخماً إلى الدرجة التي بدت منها أنواره بوضوح عبر الطريق السريع ، وُضعت على مداخله موائد طعام عريضة ، بينما وقف عمال الشاي والقهوة باللباس الوطني استعداداً لبدء الحفل ، بعد دقائق دخل المطرب الأول وبيده آلة العود ، استوى جالساً على منصة صغيرة وضعت له داخل أحد

الخيام الكبيرة ، يحيط به عازف الكمان ، وفنانو الإيقاع ، والدف ، رحّب بالحضور الذين جلسوا حوله على شكل نصف قطر دائرة ، يتوسطهم صفان من أفراد فرقة يرتدي أعضاؤها اللباس اليمني ، كانت غالب أغنيات السمرات مستوحاة من تراث عدن ، و حضرموت ، الذي نقله الكويتيون إلى بلدهم وعدلوا فيه ، ظل مبارك محتفظاً برباطة جأشه وهو يستقبل الحضور رغم أنه تجرع كأسين في الطريق ، بينما غفا مرزوق على ذراع مهدي قبل أن تُعزف الأغنية الأولى .

في السمرات تتضاءل أهمية المطرب أمام الحشود ، تنعكس الآية ، فالجماهير هي من يغني ، والمطرب هو من يسايرها ، ويأتي بعدها في الأهمية ضابط الإيقاع الذي يتحكم في ثلاثة طبول ، يضع أحدها على ساقه ، والأخرى منتصبة أمامه ، والثالثة مستوية على الأرض ، ويوازن بينها في الضرب حتى إذا ما صرخ أحد الحضور منتشياً بالألحان «توحيدة يالسلم» قطع عازف الإيقاع بطبوله غناء المطرب ، وأدخل الحضور في استعراض عزفي ، يؤدي إلى نوبة جنون من الرقص ، كانت السمرات تُمثّل إنزالاً للأغنية من سمائها ، إلى أحضان الناس العادية ، لا ترى فيها إلا الرؤوس البيضاء والسمراء ، وهي تتمايل على وقع أغنية تحكي قصة عشق في مدينة يمنية نائية لم يزرها أحد منهم .

غنى المطرب الثاني أغنية إسحاق بطلب من الحضور ،

ارتسمت على مبارك ابتسامة صغيرة مائلة إلى يمين وجهه ، سرح وهو يبتسم كمن اكتشف أخيراً سر الوجود في قرارة ذاته ثم تنبه فجأة إلى مراقبتي ، نظر لي بحدة ، ثم غمز لي بعينه ، طفقت أراقب وجوه أفراد الطاقم ، كان الجميع يغني ويرقص على أنغام الخطر المحدق به ليلة غد ، اقترب مني مرزوق ورائحة الخمر تفوح من فمه ، همس بأذني ، فارس ، هبّت رياح الجنة ، قلت له ، مرزوق أنا أحبك ، إنك تذكرني بأخي ، رد قائلاً ، نعم ، ولكن انظر إلى كل هؤلاء الناس المساكين أيها الرفيق ، إنهم لا يسمعون هدير الموجة القادمة من عمق الصحراء ، إنهم لا يرون الفرسان الملثمين وهم يحملون الطوفان على نواصي خيولهم ليلقوه عليهم ، مرزوق إنك تهذي ، همست بإذنه .

بعد انتهاء السمرة ، عدنا إلى البيت ، بنفس ترتيب الأشخاص داخل السيارة ، أمر مبارك مهدي بالتوقف فوق الجسر المؤدي إلى الجهراء ، نزل من السيارة ، وأنزلنا جميعاً ، كان بعضنا قد نام فعلاً ، بسبب التعب ، أو السكر في حالة مرزوق ، تبول من فوق الجسر ، وأمرنا بالتبول ، ترددنا لكنه صرخ بغضب بأنه سيلقينا من فوق الجسر إذا لم نتبول على العالم ، تبولت بجانب مهدي الذي أخذ يسب ويلعن حفنة المجانين هذه ، بينما زمّرت لنا السيارات القليلة المارة بسخرية ، كانت نهاية هذا اليوم تشبه الحفلة الدرامية التي تكاد تنتهي إليها حياتنا ، سكر ، وغضب ، وتبول .

(٥)

صوت الطنين يصم أذني ، والدنيا تدور من حولي ، أمد يدي عبثاً لأحاول إيقافها فأسقط معها ، هل تنتقل السكرة بالعدوى؟ لم تتذوق شفاهي الخمرة اليوم ، ولن تتذوقها إلى أبد الآبدين ، أحسست بالدم يفيض في عروقي ، لا بد ان أوردتي ستنفجر ، أخذت نفساً عميقاً ، سيّطر على توترك ، ليس هذا وقتاً للسقوط ، لا تسقط في الأمتار الأخيرة يا فارس ، لكن الفريسة كانت قد انقضت على الرامي ، هذه نوبة هلع بلا شك ، سمعت عنها ، صرخت طالباً النجدة ، لم يكن هناك صوت يخرج من فمي ، وإن خرج ، فلا أحد حولي يسمع ، أنا الآن أخرس في منتصف العدم ، يصرخ بالأموات في القبور التي تحيط به ، سقطت على الأرض ، ربما كان هذا ملك الموت ، لكن روحي خرجت بمشقة ، الجحيم ينتظرني ، احفظ الأجوبة يا فارس احفظ الأجوبة ، من ربك؟ ما دينك؟ من . . نسيت يالله ، أنقذوني من الموت ، الدنيا تزداد دوراناً ، أحاول مد يدي ، لا أرى شيئاً ، حتماً سأتجه إلى الجحيم .

غزا اليباس فمي ، تصلبت شفتاي ، وفتحت عينيّ بصعوبة حتى نهضت متثاقلاً نحو قنينة الماء ، أتيت عليها كلها ،

وعـدت إلى فـراشي ، أدرت الوسـادة حـول رأسي الثـقـيل ثم تذكرت ، ويحي! ربما نسيت موعد التجمع ، تُرى كم غرقت في خطيئة النوم؟ نظرت إلى الساعة مذعوراً ، عقاربها كانت تشير إلى الثـامنة ومـوعـد التجـمع هو التـاسـعـة ، لـن أودع أحـبـابي ، سيعذرني الجميع لكن يجب أن ألحق بالطائرة التي ستأخذني إلى ميلادي الجديد ، أخرجت حقيبة السفر التي لم أستخدمها في حياتي ، ماذا يأخذ المسافرون معهم؟ فكرت قليلاً ثم سألت نفسي مرة أخرى ، ماذا يأخذ المسافرون بلا عودة معهم؟ ربما لا يأخـذون شـيـئـاً لأنهم يريدون قلع جـذور الوطن النـابتـة فـيـهم ، ألقـيت الحـقـيـبـة على الأرض وركـضت مـسـرعـاً نحو الشـارع الرئيسي ، أشـرت بيـدي وركـبت مع أول سـيارة أجرة ، خـذني إلى منطقة خيطان بسرعة .

تناهت إلى مسامعي أصوات الصياح من الخارج ، خمنت أن جهاز المباحث قد داهمهم ، ابتلعت ريقي ، وصعدت بحذر إلى الطابق الأعلى متلصصاً عبر الدرج إلى باب الشقة ، بعد دقائق خـرج فايز وهو يدخن ، وضع يديه على رأسـه ، مناجـياً ، يالله ، همـست له ، مـا الذي يحـدث؟ صـرخ فيّ مـا إن رآني ، كـان الجـمـيع يبحث عنك منذ اليـوم ، والعـمليـة على وشك أن تفشل ، حصلنا على كل الأموال ، لكننا سنشحن مثل الخراف إلى السجن .

ولجت إلى الداخـل ، صـارت الشـقـة سـاحـة حـرب بلا

قذائف ممطرة ، الخريطة ممزقة ومرميّة على الأرض ، ومرزوق يجلس فوق الطاولة وهو يضرب عليها برجله صارخاً بكلمات روسية غير مفهومة ، خرج مهدي من أحد الغرف مسرعاً ، غرس يده في رقبتي ، لماذا تأخرت ، لقد أفسدنا كل شيء ، سنقضي بقية حياتنا في السجن المركزي ، ما قيمة أموال الدنيا كلها إذا حُشرت حريتك في زنزانة صغيرة؟ فتحت باب الغرفة ، لاح لي مبارك وهو يقيء ويبكي ممسكاً بسلاحه ، بينما تكوّر خليفة بجانبه ، واضعاً رأسه بين ركبتيه ، ورجلاه ترتعشان .

تبيّن أن مرزوق قد ذهب إلى جمعية اليرموك اليوم بعد غروب الشمس ، وقف في منتصف ساحتها الخارجية ، ثم صعد على طاولة مقهى «كاريبو» ، وأخرج سلاحه من جيبه ، أطلق طلقتين في الهواء ، ثم بدأ يردد منفعلاً بصوت عالٍ :

أطلق لها السيف لا خوف ولا وجل
أطلق لها السيف وليشهد لها زحل
أطلق لها السيف قد جاش العدو لها
وليس يثنيه إلا العاقل البطل
اسرج لها الخيل ولتطلق أعنتها
كما تشاء ففي أعرافها الأمل
دع الصواعق تدوي في الدجى حمماً
حتى يبان الهدى والظلم ينخذل

واشرق بوجه الدياجي كلما عتمت
مشاعلاً حيث يعش الخائر الخطل
واقـــدح زنادك وابق النار لاهبـــةً
يخافها الخاسئ المستعبد النذل
أطلق لهـــا الســـيف جـــرده بارقـــه
مـــا فـــاز بالحق إلا الحـــازم الرجل
واعـــدد لهـــا علمـــاً في كل ســـارية
وادع إلى الله أن الجـــــرح يندمل

رمى مرزوق بقية الطلقات بعد أن ألقى القصيدة ، مفرّغاً خزّان سلاحه ، ثم صرخ ملوحاً بقبضته اليسرى ، فليبق كل في مكانه ، أيها الرجال ، فليبق في كل في مكانه ، أيها الرجال ، فليبق كل في مكانه ، أيها الأحرار ، فليبق كل في مكانه ، حياتي فداءٌ لكم ، روحي فداء لكم ، أيها الرجال ، إننا قادمون من أجل نصركم ، سنعود قريباً ، جهزوا فؤوسكم ، أشعلوا مشاعلكم .

أنهى مرزوق كلمته ثم سار مبتعداً وهو يعرج ، بعد أن ألقى سلاحه في مجرور صرف صحي ، صوّر الناس بهواتفهم المزودة بالكاميرات خطبته المجنونة ، وأصدرت وزارة الداخلية بياناً تطالب المواطنين فيه بالتعاون معها لاعتقال المسلح المجهول ، زادت فداحة الأمر عندما وضعت قناة تلفزيونية مقطعاً لرئيس العراق المخلوع صدام حسين وهو يردد نفس الأبيات ، سرت

شائعة بأنه ضابط عراقي عاد للانتقام ، أعلنت استخبارات الجيش تدخلها ، واستنفار عام في جهاز أمن الدولة ، صار مرزوق بسبب حماقته ، المطلوب الأول في الكويت لجريمة لم يرتكبها .

في ذات الوقت ، اقتحم مهدي وخليفة وضاري وفايز ومتعب مكاتب السياحة الثلاثة المتجاورة ، استغلوا عطلة يوم الجمعة ففتحوا الخزائن بكل سهولة ، وملأوا ثلاث حقائب كبيرة بالأموال ، دنانير ، ودولارات ، وعملات خليجية أخرى ، سرقنا مغارة علي بابا ، لكن أحد تجار المخدرات الذي كان يجلس في المطعم المقابل للعمارة ، تعرّف على خليفة ، صرخ فيه مطالباً إياه بالتوقف ، ركب الجميع السيارة على عجل ، وأخرج التاجر سلاحاً من جيبه ، وراح يرميهم في وسط الشارع ، لم تصب الرصاصات إلا زجاج السيارة الخلفي ، قاد الخمسة سيارتهم بدون زجاج خلفي حتى منطقة خيطان ، التقطت كاميرات المراقبة التي دججت بها شوارع العاصمة صوراً واضحة لملامح الجميع ، وبتنا مطاردين من تجار مخدرات ، وحكومة ، وشرطة ، وجيش كامل .

قضى مبارك على زجاجة خمر كاملة ، تحزّم ذله ، وضع سلاحه في موضعه وسار نحو بيت عمه ، طرق الباب الرئيسي بقوة ، سمع الجالسون في الديوانية صوت صراخه ، خرج الابن من بابها الخلفي يستفسر منه ، سأله مبارك بلسان ثقيل ، أبوك

وين؟ أشار الابن إلى الداخل فاقتحم الديوانية ، كانت مليئة كعادتها في كل يوم جمعة ، أخرج سلاحه من جيبه ورمى طلقة في الأعلى سقط معها نصف السقف الهش ، صوّب نحو عمه ، هل تظنون أن ثيابكم وأموالكم ومناصبكم ستخفي حقيقتكم؟ أنتم أوغاد ناكرون للجميل ، لم يكن هناك أصعب من أن تكون بندقية غاضب وسكران مصوبة اتجاهك ، استغل أحد الحضور لحظة شرودٍ لمبارك فانقض عليه ، هرب العم المرعوب من الباب الداخليٍ الذي يفصل الديوانية عن صالة النساء ، استرجع مبارك بضخامة جسمه سلاحَه ، ركل الباب ملاحقاً عمه ، فتش في الغرف حتى أعياه التعب ، أحس بقرب الخطر فركب سيارته وعاد إلى الشقة .

***

في غمرة الخوف والتوتر ، طرق رجل بلباس الشرطة الكامل باب الغرفة ثم دخل ، توجست خيفة ، ألقيت بنظري على النافذة تحسباً للهرب ، لكنه كان قادماً من الغرفة الأخرى ، مسح على رأسه الذي غزاه الصلع ، ثم لبس قبعته ، وقال بهدوء إنه لن يستطيع أن يُركب مبارك الطائرة وهو بهذه الحالة ، والرجل الآخر الذي يجلس في الصالة ويلبس لباسه العسكري لن يذهب معنا أيضاً ، إنه على نشرات الأخبار ، ثم التفت إليّ وقال ، إن لدينا دقائق حتى نقرر من هو قائد هذه العملية ، أو أنه سيمضي تاركاً إيانا كصيد ثمين لجهاز المباحث .

رفع خليفة رأسه ، مسح صورة اليأس من على ملامح وجهه ، ثم سحب مسدس مبارك ، وأشهره في وجه الشرطي ، أنا قائد هذه العملية الآن ، وأنت لن تذهب إلى أي مكان حتى تُخرجنا ، أو سنشي بك إلى الشرطة العسكرية ، أنت تعرف ماذا يمكن لهم أن يفعلوا بشرطي فاسد ، سيقتلعون أظافرك كما فعلوا بمن قبلك ، وصاحباي السكران والمطلوب سيذهبان معنا أيضاً .

جلس الشرطي صاغراً بخوف ، وهو يرى الرجل الوديع يصوب السلاح في وجهه بعد أن قذف القدر به إلى قيادة عملية مثل هذه ، أمر خليفة كلاً من ضاري ومهدي بتكبيل مرزوق حتى يهدأ ، وإلباسه لباساً مدنياً ، بينما حمل مبارك بمعاونتي إلى دورة المياه ، ملأنا المغطس بالماء ثم أغرقناه عدة مرات حتى صحا من سكرته ، وُضعت كل الأموال كما هو متفق عند تاجر سوري يسكن في منطقة جليب الشيوخ ، وخرجنا جميعاً رفقة الشرطي ، أقفل خليفة باب الشقة ووضعه في جيبه ونزلنا عبر المصعد على دفعتين .

قسّم خليفة الطاقم إلى مجموعتين ، الأولى تذهب في سيارة الشرطي وعلى رأسها مرزوق لأن صورته باتت معروفة ، والثانية تستقل سيارة أجرة ، لم يكن من الممكن الذهاب بسيارة مبارك أو سيارة مهدي التي أصيبت بإطلاق نار ، في منتصف الطريق طلبت من سائق سيارة الأجرة التوقف ،

وضعت قدمي على الإسفلت ، وطلبت منهم السماح ، لا يمكنني أن أرحل ، لا أستطيع ، أنت تخاف من إلقاء القبض عليك ، لكن إن قبضوا على أحدنا قبل أن نغادر سيقبضون على الجميع ، لا طائل من هذا الجبن ، شرحت لخليفة أنني لا أخاف من شيء ، لكني لا أريد أن أغادر وطني ، ليس هناك وطن ، متى ستستوعب؟ أصررت على البقاء ، توقفت السيارة الأخرى ، نزل مرزوق ، فارس ما الذي تفعله؟ ما الذي تقوم به؟ تدخل مبارك ، أنت تقوم بأكبر خطأ بحياتك ، هذه فرصتك التي لا تُعوض ، أصررت على موقفي ، لن أركب السيارة وسأتنازل عن نصيبي ، أيها الأحمق ، أيها الأحمق ، سيسجنونك بعد أن نرحل ، جاء صوت مهدي من الخلف ، أنا لا أهتم ، أرجوكم ارحلوا واتركوني بسلام .

بدأ أفراد الطاقم يعانقونني ، توقف مهدي عن التصرف بقسوة معي ، ابتسم وقال ، كن بخير ، أهداني مرزوق عصاه السوداء التي اتكأ عليه لسنوات ، سأطأ لندن بقدمي العرجاء ولا تنس شحن الكتب لي ، قبّل مبارك ما بين عينيّ ، أعادت قبلته مشهد رحيله قبل سنوات ، أخرج سلاحه من جيبه وقال ، خذه حتى إذا ما شعرت بفداحة خطئك بعدم الهجرة ، انتحرت به ، همس مرزوق ، أو تشعل به ثورة .

بدأ المطر يصب بقوة ، رفعت يدي ملوحاً للمسافرين ، وجلست على الرصيف المقابل لطريق المطار أشاهد الطائرات

وهي تقلع كبيرة في الحجم فإذا توسطت السماء صارت مثل نجمة فيها ، فركت يديّ من شدة البرد وقفلت عائداً نحو البيت .

(٦)

جلست على الكرسي الاسمنتي أحدّق في الموج الذي كان يضرب الشاطئ بغضب ، خوى المكان من الناس سواي ، أخرجت سيجارتي وأمسكتها بيدي طويلاً ، ثم أشعلتها بقداحتي التي قاومت ريح البحر الباردة ، خطرت في ذهني ذكرياتي مع مريم ، ربُّ أنت تعلم كم خسرتها ، و خسرت كل شيء ، والدي ، فرصتي الأخيرة بالرحيل ، وطني الذي لم أربحه يوماً ، خسرت ذاتي وروحي في حين حصل الآخرون على كل شيء ، صار مبارك المطلوب الأول بتهمة السرقة والاختلاس والشروع بالقتل وحيازة الأسلحة ، وحقق مرزوق ما كان يصبو إليه ، الجلوس في المكتبة والكتابة في السياسة ، بينما افتتح مهدي وخليفة مطعماً صغيراً في زقاق لندن ، سنة كاملة مضت على تلويحتي الأخيرة ولا أحد يعرف سرّي ، هبّت نسمة باردة عليّ ، وأدخلت يدي في معطفي . . كانت البندقية لا تزال في جيبي .